15me Année No. 710

Lundi — 10 — 2 — 1947

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٧١٠ «القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ ربيع الأول سنة ١٣٦٦ — ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧» السنة الخامسة عشرة

فى ميدان عابدين ...

شهد ميدان عابدين يومين من أيامهم السود سيظلان فى تاريخ الاستعمار عنوانين على الخزى واللعنة : يومَ صحَّت أحلامهم فأخذوا يدخلون ، ويومَ زلت أقدامهم فأخذوا يخرجون ! أما اليوم الأول فهو التاسع من سبتمبر عام ١٨٨١ يوم وقف عرابى فى ساحة القصر ، ومن خلفه الجنود ، ومن خلف الجنود الشعب ، يطلب من ولىّ الأمر فى احتشام واحترام أن يسقط وزارة ويقيم وزارة ...

وكان كلفن ابن جون بول واقفاً بجانب الخديو يشير عليه بقتل القائد الثائر . فلما نبا (توفيق) فى يد الحية ، واستجاب لرغبة الأمة ، قبض مشير السوء وسفيرُ الاستعمار بكلتا يديه على ناصية الفرصة العجلى حتى لا تفوت ، وأخذ يزرع بين القصر والحكومة الزرع الخبيث ، حتى فسد الأمر واستطار الشر ، وعصفت رياح الفتنة . وحينئذ وضع الماكر الخدّاع يديه على قوائم العرش يوهم صاحبه أنه يمسكه ، وهو الذى يحركه . ثم وجد من طغام الطابور الخامس من أعانه بالخيانة على جيش الثورة ، فاحتل البلاد ونفى القواد وسيطر على الحكم !

وأما اليوم الآخر فهو الرابع من فبراير عام ١٩٤٢ يوم وقف مايلز لمبسون حيث كان يقف عرابى ، ومن ورائه فلول الدبابات التى طحنها روميل ، يطلب من مليك النيل فى صفاقة وحماقة أن يسقط وزارة ويقيم وزارة ... ولكن جون بول فى هذه المرة كان هواه مع عرابى لا مع القصر ؛ فوضع الكرسى بإزاء العرش ، والطربوش بجانب التاج ؛ ثم دفعه فجور النفس وخبث الضمير أن يقول لمصر وهو يقتحم أبواب القصر ببأس الحديد : أريد أن يحكم هذا الوزير أو لا يملك هذا الملكُ ! !

كلمة مجرمة لم يقلها فى ذلك اليوم البعيد عرابى الثائر ، وإنما قوّله إياها الكذاب ليحكم عليه بالمصادرة والنفى وعلى وطنه بالاحتلال والحماية ! ولكن المجرم قالها فى هذا اليوم القريب بلسانه البذىء وسلاحه الجرىء ، فنزت فى الرؤوس نوازى الغضب ، وثارت بالنفوس عواصف الحميّة ، وكاد الزمام يفلت من يد الحليم فيلتاث الأمر على انجلترا لولا أن سبق فى حكم الله أن الجبان يهزم الشجاع ، وأن العصا تكسر السيف ، وأن (العلمين) تدمر ألمانيا !

لقد أثار جون بول الجيش يوم عرابى ، والجيش قد ينهزم لأنه عتاد وعَدَد ؛ ولكنه أثار الشعب يوم لمبسون ، والشعب لا ينهزم لأنه روح ومدد ! وإذا دخل اللص منصوراً وراء الجيش ، فانه سيخرج مدحوراً أمام الشعب . وإذا كان فى يوم الدخول قد وجد الخائنَ الذى تلقاه فى التل الكبير ، ودله على الباب الخلفى ، وقاده إلى فناء القلعة ؛ فلن يجد بعون الله يوم الخروج إلا ألسنة تجرى باللعن ، وأرجلا تمتد بالركل ، وأيدياً تشير إلى جهنم ! !

إلى القضاء يا مجرم ! ! إلى المحكمة التى أنشأتها سنختصم ، وإلى القوانين التى سننتها سنحتكم . فإذا كنت أنت وحلفاؤك جادّين ، فسيحكمون عليك بما حكمت به على عرابى ؛ وإن كنتم هازلين فارتقب يوم يتدارك القضاءَ بحكم القدر ، وتأخذك الصيحة الكبرى فلا تبقى عليك ولا تذر !

احمد حسن الزيات

على ذكر المولد النبوي:

محمد والأمن العام

لصاحب العزة على حلمى بك
مدير جرجا

تمهيد:

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عصر مروع الأمن مضطرب النظام تسوده الفوضى من جميع نواحيه: عصبيات جاهلية، ووأد للبنات، وارتكاب لأشنع المنكرات، سلب ونهب، وقتل وعدوان؛ تغير القبيلة على الأخرى فتبدد شملها وتسلبها حريتها وما لها وتعتدى على أعراضها فكان الحق للقوة الناشئة والسيف المسلول. وبديهى أن يتبع هذه الفوضى انحلال فى الأخلاق وإزهاق للنفوس وسلب للأموال وضياع للحريات. كل ذلك كان فى جزيرة العرب. وما كانت الممالك المجاورة ذات المدنية والحضارة كالفرس والروم خيراً من بلاد العرب من هذه الناحية، بل كانت الحروب فيها قائمة يضطرم أوراها ويشتد لهيبها، وكان العالم يتردى فى بؤر الفساد ويرقص على بركان ثائر ينذر بالحروب والويلات — لذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن يقوم على أنقاض هاتين الامبراطوريتين أمة أخرى فتية متوثبة متطلعة للنهوض، لا تعوزها الشجاعة المادية والأدبية ولا ينقصها قوة الجنان ولا تأبه بخوض غمار الحروب للذود عن الإنسانية وأمنها. وقد ألفت التقشف واعتادت شظف العيش، وكانت هذه الشروط موفورة فى أصحاب النبى محمد صلى الله عليه وسلم وتابعيه من أولئك العرب الذين سما الإسلام بنفوسهم، حتى جعل منهم أمة أخرى لا شاغل لها إلا إعلاء كلمة الله وإصلاح أمور المجتمع الإنسانى.

ولقد أعد الله هذه الأمة للنهوض بالعالم وتوحيد كلمته فأرسل من بينها رسولا عرف بالاستقامة والأمانة وحسن السيرة وقوة الشخصية وشرف المحتد وكرم الأصل، وكان لسلوكه الشخصى وسياسته الحكيمة وتأييده بالمعجزات الباهرة ما جعل من أخيارهم القلوب الواعية والأذن الصاغية (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) فأوحى الله إليه بالقرآن الكريم فكان هو الدستور العام لكل ما فيه سعادة المجتمع وخاصة للأمن والنظام والسلام لما اشتمل عليه من قواعد العدل والرحمة والحرية حتى صار دستوراً يعمل به فى كل جديد من مختلف العصور. ولم يأت (مؤتمر سان فرنسيسكو) وغيره من الهيئات التى تحاول وضع مبادىء للحرية والسلام والأمن الدولى بشىء أفضل من مضمون هذا الدستور الإلهى وتطبيق مبادئه السامية عملا بالإشارة التى جاءت بالآية الكريمة (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله؛ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) فرسالة محمد صلى الله عليه وسلم من أهم مقاصدها هداية الخلق وحقن الدماء ونشر السكينة والسلام. فبعد أن تمت له الهجرة وبلغ رسالة ربه كانت الحكومة فى عهده قائمة على العدل والحرية والأخاء المستمد من هدى القرآن الكريم ولم يستعن فيها النبى بعسس ولا شرط للمحافظة على الأموال والأنفس والثمرات. وكان مما ساعد على ذلك:

١ — الهيبة التى كان يتمتع بها صلى الله عليه وسلم؛ فقد ملأت قلوب المؤمنين والكافرين والمنافقين على السواء، وقلما كانت نفس مجرم أو قاطع طريق تحدثه بارتكاب ما حرم الله لما غشيهم من خشية الله وهيبة رسوله. وقد روى أن أعرابياً دخل عليه صلى الله عليه وسلم فارتاع من هيبته فقال له: « خفف عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ».

٢ — إن الناس فى الصدر الأول من الإسلام ما كادوا يتلقون الدعوة ويدخلون أفواجا فى دين الله حتى فاضت قلوبهم بتقوى الله ورهبته وقلت الجرائم التى كانت ترتكب فى الجاهلية. وأصبح كل إنسان على نفسه حسيباً ورقيباً، فمن ارتكب جرماً فى السر أو العلانية سارع إلى الاعتراف للمصطفى صلى الله عليه وسلم بما ارتكبه فكان الجانى شرطى نفسه. روى أن رجلا أتى النبى فقال هلكت يا رسول الله! فقال وما أهلكك؟ قال أصبت امرأتى فى نهار رمضان قال: هل تجد ما تعتق رقبة؟ ومن أجل ذلك كان واجب الحاكم سهلا هينا، غير أن طبيعة البشر الطغيان، والظلم من شيم النفوس، والنفس أمارة بالسوء، فوجب الردع والزجر استئصالا للفساد وتثبيتا للاصلاح. ولذلك قال جل شأنه:

(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) .

وقد رمت الشريعة الإسلامية فيما جاءت به إلى المحافظة على الدين والنفس والعرض والعقل والمال وتلك أقصى غايات السعادة فى الدين والدنيا ، فمثلا للمحافظة على الدين حرم الكفر والإلحاد وشرعت الصلاة والعبادات ، وللمحافظة على النفس حرم القتل والانتحار . وللمحافظة على العرض حرم القتل والزنا . وللمحافظة على العقل حرمت الخمر ونحوها . وللمحافظة على المال فرضت الزكاة وحرم الميسر والسرقة .

وسنتكلم فيما بعد عن التشريع الجنائى الذى كفل تحقيق هذه الأغراض .

القواعد الأولى التى وضعتها الشريعة الإسلامية لصيانة الأمن العام

تتلخص فى أن تصان النفس البشرية من العوامل التى تحملها على الإجرام وذلك :

أولا — بتهذيب النشء بالوعظ والإرشاد وإقرار العقائد الصحيحة التى تنير القلب وتجعله فى شغل دائم بمراقبة الخالق والخوف من عقابه واجتناب ما نهى عنه .

ثانيا — بفرض الزكاة والترغيب فى الصدقات صيانة للمجتمع من عوامل الإجرام. فقد قال الله تعالى (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وقال تعالى (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث) وقال تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وقال عليه الصلاة والسلام « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ؛ ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة »

وبذلك تزول حاجة الفقير فلا يفكر فى ارتكاب الجرائم . فلو علم كل فقير أن له حقا فى مال الغنى ما وجد عليه ، ولساعده فى استثمار أمواله لعلمه أن ذلك يعود عليه بالمنفعة فيعمل مجداً مع الغنى فى زيادة الإنتاج فى جو من الأمن والسلام . إذ لا يخفى أن الجرائم إنما ترتكب غالباً بدافع الفقر والعوز وما (مشروع بفردج) وغيره من المبادىء الحديثة الخاصة بتأمين حياة الفقير ورفع مستوى معيشته إلا للأغراض التى توختها الشرائع السماوية .

على أنه ينبغى للغنى أن يذكر دائما أنه لا يعطى حين يعطى تبرعا بالمعنى الصحيح بل إن ذلك فى الحقيقة حق عليه كما تقدم ذكره فى الآية الكريمة ، يأخذه الفقير وهو محفوظ الكرامة الإنسانية التى حفظها له الشارع . فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام « اليد العليا خير من اليد السفلى » .

ولا شك أن فى ترغيب الشريعة الإسلامية فى العمل والتكسب والاحتراف إقامة لمعاد الكرامة فقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم سائلا درهماً وأمره أن يشترى حبلا وفأساً ويحتطب حتى لا يتعرض لذل السؤال .

ثالثا — القصاص الحازم ممن يرتكبون الجرائم ليكون فى ذلك ما يردعهم عن ارتكابها ، وقد بينت الشريعة الإسلامية تفصيلات الحدود والقصاص وسنوضحها فيما بعد .

رابعاً — العناية بالقضاء، وجعل منصبه أكبر مناصب الدولة بعد الإمارة فلا يعهد به إلا لمن تفقه فى الدين وعرف ما يصلح المجتمع وما يدفع عنه الشر وذلك بتطبيق أحكام الكتاب والسنة واتباع رأى المجتهدين من السلف الصالح ، وقد امتازت الشريعة الإسلامية فى قضائها بمراعاة المصلحة العامة .

وهناك قواعد إيجابية وأخرى سلبية ، وسنحاول بإيجاز بيان الهدى الإسلامى من الناحية السلبية فى منع الجريمة قبل وقوعها وما لذلك من أثر فى الأمن ضاربين بعض الأمثلة من مشاهداتنا العملية .

القتل :

هو أفظع الجرائم . فقد حرمته جميع الشرائع السماوية . قال تعالى (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) ولما كان إزهاق الروح من طبيعة الحيوان الوحش فارتكاب الآدمى له يدل على أن فطرته خلت من أخص المزايا البشرية ، وإن فى ارتكاب هذه الجرائم ما يهدم كيان المجتمع ويفضى إلى الإخلال بالأمن . فكثيراً ما تثأر للقتيل أسرته وهذا شائع الحصول وكثير الوقوع خصوصاً فى بلاد الوجه القبلى فتقع بسبب ذلك معارك دموية بين الأسرتين أو الأسر وتسيل الدماء وتزهق الأرواح .

وكثير من حوادث القتل يكون نتيجة الغضب وحب الانتقام كما نلمس ذلك بوضوح فى الصعيد وسائر بلاد الريف ، والغضب شر

أمراض النفس . وقد عالجه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « ليس الشديد بالسرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » وكان هو نفسه المثل الأعلى فى الحلم وكظم الغيظ واحتمال المكروه حتى أثنى الله عليه فقال (وإنك لعلى خلق عظيم) .

الانتقام والأخذ بالثأر :

ولقد كانت الفوضى فى بلاد العرب ضاربة أطنابها . ومن أمثال ذلك الانتقام والأخذ بالثأر إذ كان من مظهر ذلك أن النساء لا يرضين فى الثأر إلا أن يصبغن ملابسهن بدم القتيل ، وبعضهن يأكل من كبده وقلبه كما حصل لسيدنا حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم فى إحدى الغزوات . وكن يعيرن من يمسك عن الانتقام لنفسه أو الأخذ بالثأر لذويه ، فوضعت الشريعة الإسلامية الغراء لذلك حداً وشرعت القصاص فى قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الأبصار) فإن إعدام القاتل فيه حقن للدماء لما فيه من الزجر والاعتبار فيكف كل جان عن ارتكاب هذه الجناية وبذلك يسود الأمن ويعم السلام .

وما زالت آثار هذه العادة الممقوتة باقية فى الريف وخاصة فى الصعيد وهى من التراث المكروه ويجب العمل على استئصالها بكل الوسائل الميسورة ، ومن أهمها العناية بالمصالحات والقضاء على الأمية ونشر نور العلم والعرفان بين هذه الأوساط وأن تكون إجراءات المحاكم سريعة وأحكامها رادعة زاجرة .

شهادة الزور وأثرها وعلاجها :

حرمت الأديان جميعها شهادة الزور — وعدتها الشريعة الإسلامية من أكبر الكبائر ، ومن دستور محمد القرآنى فى ذلك (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) وقوله سبحانه وتعالى (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم) وفى آية أخرى (ولا تكتموا الشهادة وأنتم تعلمون) ومما يثقل كاهل رجال الأمن فى مهمة كشف الجرائم التواء الشهادة أو الإعراض عنها . فما أحكم محمداً حيث يقول ما معناه « لا ينبغى لأحد شهد مقاماً فيه حق إلا تكلم به فإن ذلك لا ينقص أجله ولا يمنع رزقه »

ومما يؤسف له أشد الأسف أن الشاهد وخاصة فى الريف قلما يجد من الشجاعة ما يدفعه إلى أداء الشهادة معاونة منه للعدالة فى الاهتداء إلى الجانى لينال الجزاء العادل . ويكون من نتائج ذلك استفحال الإجرام — ويرجع الإحجام عن أداء الشهادة فى الغالب إلى الرهبة من الجناة والخشية من سطوتهم أو نفوذ ذويهم نظراً لطول إجراءات المحاكمة الجنائية

وعلاج ذلك تبسيط هذه الإجراءات واختصارها خصوصاً وقد دلت التجارب والمشاهدة على أن طول الزمن كثيراً ما يدفع ذوى الشأن فيها إلى الانتقام بأنفسهم فضلا عن أنه يقلل من أثر الأحكام فى نفوس الجناة ويضعف وقعها عند أمثالهم من المجرمين، كما أن ذلك إن لم ينس الشهود الوقائع التى شاهدوها من عهد طويل فإنه يتيح الفرص للجناة لإضعاف أدلة الاتهام والتلفيق لإفلاتهم من يد العدالة .

وفى بلد كمصر تعددت فيه الهيئات القائمة على التحقيق وتوزعت المسئوليات يجب وضع القواعد الكفيلة بتبسيط العمل بحيث تقوم كل هيئة بما يفرض عليها ؛ حتى لا تتعدد الإجراءات تعدداً قد يؤدى إلى الاضطراب فى التحقيق والإضعاف من قيمته .

المصالحات والوعظ والإرشاد :

ومما جاءت به الشريعة الغراء للمحافظة على الأمن العام : الأمر بإصلاح ذات البين فقد قال الله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) وقال الله تعالى (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) وقال الرسول عليه السلام : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا » من أجل ذلك يكون لجهود الوعاظ فى هذا الميدان مجال فسيح عظيم الأهمية فى معاونة هيئات الحكومة للوصول إلى الهدف المنشود وهو إحلال الصفاء محل النزاع بما يسدونه إلى الفريقين من الموعظة الحسنة والإرشاد الحكيم

وقد قامت دعوة النبى عليه الصلاة والسلام على هذا الأساس فالله يقول (فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر) ويقول

إلى إخواننا الأزهريين :

بمناسبة حادث الشيخ أبي العيون

للأستاذ علي الطنطاوي

ما عرفنا علماء الأزهر إلا ملوكا ، لا أمر فوق أمرهم ، ولا كلمة بعد كلمتهم ، إذا قال واحدهم لبّت الأمة ، وإذا دعا هبّ الشعب ، وإذا أنكر على الحكومة منكراً أزالت الحكومة المنكر ، وإذا امرها بمعروف أطاعت بالمعروف ، فكانوا هم السادة وهم القادة ، وهم أولو الأمر : هذى حكومة مصطفى فهمي باشا تستجيب سنة ١٨٩٩ لرغبة الانكليز فى إضعاف القضاء الشرعى ، فتضع مشروعها المشهور ؛ لتعديل اللائحة الشرعية وضم اثنين من أعضاء الاستئناف الأهلى إلى المحكمة الشرعية العليا ، ويبلغ من ثقتها بقوتها ، وتأييد مجلس الشورى لها أن لا تبالى باحتجاج الحكومة العثمانية على المشروع ، وتعرضه على المجلس . (وكان من أعضائه الشيخ حسونة النواوى ، الذى جمعت له مشيخة الأزهر وفتوى الديار المصرية) فيقول كلمة موجزة فى إنكار المشروع ، وينسحب من المجلس ويتبعه القاضى التركى ، فتكون هذه الكلمة كافية لقتل المشروع ، فيردّه المجلس كله ، وتحاول الحكومة إنفاذه على رغمه فلا تجد عضواً استئنافياً واحداً يقبل الانضمام إلى المحكمة العليا ، (عرضت ذلك على الشيخ محمد عبده وكان من أعضاء الاستئناف الأهلى وسعد زغلول وأحمد عفيفى ويوسف شوقى ويحيى ابراهيم . فأبوا جميعاً) وتمشى كلمة الشيخ فى الناس مشى النار فى يابس الحطب ، فتهبّ الأمة كلها تؤيده حتى ترضى الحكومة بالهزيمة وتسترد مشروعها(١) .

ولم يكونوا يخشون فى الحق لومة لائم ، ولا يخافون غضبة ملك جبار : هذا حسين باشا الجزائرلى ، يصل مصر فيفر منه أمراؤها إلى الوجه القبلى ، فيأخذ أموالهم كلها ولا يرضيه فى عتوه وجبروته أن يستولى على عروضهم حتى يسطو على أعراضهم ، فيقبض على نسائهم وأولادهم ، ويسوقهم إلى السوق ليبيعهم زاعماً أنهم أرقاء لبيت المال ، وكانت الأحكام عرفية ، وسيوف الظلم مصلتة ، ولواء البغى مرفوعاً ، ولكن ذلك لم يمنع علماء الأزهر من إنكار هذا المنكر ، ولم يرهبوا بطش الباشا وهم يروون أن أفضل الشهداء رجل قال كلمة حق عند إمام جائر فقتله بها ، فمضوا إليه وتكلم الشيخ محمد أبو الأنوار فقال له : « أنت أتيت إلى هذه البلدة وأرسلك السلطان لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ، أولبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ »

فقال : « هؤلاء أرقاء لبيت المال » . قال : « هذا لا يجوز ولم يقل به أحد » فغضب أشد الغضب وطلب كاتب ديوانه ، وقال : « اكتب أسماء هؤلاء وأخبر السلطان بممارضتهم لأوامره » فقال له الشيخ محمود البنوفرى : « اكتب ما تريد بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا(٢) » ، وكانت النصرة لهم عليه ، فأحقوا الحق وأبطلوا الباطل ، ووضع الله فى قلبه هيبتهم ، لأن من خاف الله خافه كل شىء . فكانوا بذلك (أجل من الملوك جلالة(٣)) ،

(١) عن كتاب الأستاذ محمد فرج السنهورى
(٢) القصة فى الجبرتى ٣ – ٢٠١
(٣) شوقى .

(البقية فى العدد القادم)

(وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً) ويقول (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) .
وبما أن هذه الدعوة هى رسالة الوعظ فحبذا لو ذللت سبل الانتقال لحضرات الوعاظ ليتمكنوا من كثرة التردد على البلاد التى تقع فى دائرة عملهم وليتيسر لهم أداء رسالتهم على الوجه الأكمل .
وحبذا لو عنى كذلك خطباء المساجد بمعالجة العادات السيئة والمنكرات الشائعة والجرائم المنتشرة فى دائرة عملهم بما يلائم روح العصر وتطورات الزمن بعبارة سهلة مفهومة لعامة الشعب بالحث على التمسك بالدين وغرس صفات الرفق بالضعيف وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم والتحذير من الكذب وشهادة الزور والترغيب فى أداء الشهادة والصدق وما إلى ذلك من الفضائل . والمأمول أن يتم على أيديهم جميعاً تحقيق رسالتهم على أكمل وجه فيساعدون على استتباب الأمن وإسعاد البشر .

على حلمى
مدير جرجا

وكانت إشارتهم للحكام أمراً ، وطاعتهم عليهم فرضاً ، حدّث الشيخ محمد سليمان[1] أن أباه قدم لطلب العلم فى الأزهر ، أواخر أيام الشيخ إبراهيم البيجورى ، فشكا إليه ظلم تلك الأيام ، وما كان فيها من السخرة والمونة فكتب له ورقة بمساحة إصبعين هذا نص ما كان فيها : « ولدنا مدير الدقهلية . رافعه من طلبة العلم يجب إكرامه . خادم العلم والفقراء . الخاتم (ابراهيم البيجورى) » فدفعها إلى المدير ، فقبلها ووضعها على رأسه ، ودفعت عنه هذه الورقة كل مظلمة ، وأنالته كل مكرمة ، ورفعت قدره عند المدير وعند الناس .

وكان الشيخ الأزهرى موقراً فى الجامع وفى البيت وفى السوق ، مبجلا عند الطلبة والعامة والحكام ، وكان أقصى أمل الطالب أن يخدم الشيخ وأن يحمل له نعله ، وإذا سبّه عدّ سبه إكراماً ، وتحمله مسروراً ، ورآه من أسباب الفتوح .

وكان الطالب الأزهرى المجاور ، يذهب إلى بلده فى العيد أو فى الإجازة ، فيقبل البلد كله عليه يقبل يده ، ويتبرك به ، ويشم فيه عبق الأزهر ، ويكون المرجع لأهله فى الجليل من شؤونهم والحقير ، ويكون فقيههم والحاكم بينهم ، لا مردّ لحكمه ولا اعتراض عليه ، لأنه يحكم بشرع الله ، ويبين حكمه فى فتواه .

هذا ما عرفناه . فما الذى جرى حتى تبدلت الحال ، ووقع حادث الشيخ أبى العيون ؟

ما الذى نزع هيبة المشايخ من القلوب وأنزلهم من مكانتهم عند الحكام ؟

أقول ؟ أنتم أيها الأزهريون فعلتم هذا كله ! أنتم تنكبتم سبيل أسلافكم ، فما الشيخ اليوم شيخ مسلّك ولكنه موظف محاضر ، وما التلميذ مريد طيّع ، ولكنه على الغالب مشاغب ، وما يطلب علماً ولكن يبتغى شهادة . أنتم ثرتم على مشايخكم وعلمتم الناس الثورة عليهم . أنتم أيها الطلاب . أنتم مددتم أيديكم إلى مدرسيكم ، فجرأتم هؤلاء أن يمدوا أيديهم إلى أبى العيون . أنتم أطلقتم ألسنتكم فيهم فشجعتم هذه الصحف أن تتطاول حزبية إلى الكلام على شيخ الأزهر . أنتم أيها الأزهريون جميعاً جعلتموها جامعة فكان فيها ما يكون فى الجامعات ، وقد

(1) فى كتابه الحايل (من أخلاق العلماء) .

كانت جامعاً لا يكون فيه إلا ما يكون فى الجامع . لقد كان الأزهر لله فصار للناس ، وكان للآخرة فغدا للدنيا ، وكان يجيئه الطالب يبتغى العلم وحده ، يتبلغ بخبز الجراية ، وينام على حصير الرواق ، ويقرأ على سراج الزيت ، ولكنه لا ينقطع عن الدرس والتحصيل من مطلع الفجر إلى ما بعد العشاء ، ينتقل من شيخ إلى شيخ ، ففى كل ساعة درس ، ولكل درس كتاب ، ولكل كتاب ساعة للتحضير والمراجعة ، لا يدع الدرس إلا للصلاة فى المسجد صلاة خشوع وتبتل ، أو للأكل فيه أكل قناعة وتقشف ، أو لشرب العرقسوس أو الخرنوب . هذه ملذاتهم من دنياهم ، لا يخرجون من المسجد إلا عصر الخميس ، يؤمون الرياض والحياض ، للاستجمام والاستحمام ، لا يأملون من العلم مالا وقد كان أقصى مرتب الشيخ الأزهرى إلى عهدٍ قريب ثلاثة جنيهات فى الشهر ، ولا يبلغها إلا نفر قليل ، فراضوا نفوسهم على القناعة ، وعودوها الصبر وألزموها الرضا. هذا المرصفى يحدّث عنه الأستاذ محمود حسن زناتى أنه كان فى دار بالية فى حى قديم وقد جلس على حصير ألقى عليه كتبه وأوراقه ، ومن حوله خيط من عمل القصب مرشوش على البلاط يدرأ عنه هجوم البق[1] لم يمنعه هذا الحصير الخلق فى هذه الدار البالية من أن يشرح عليه الكامل . وأورثهم هذا الفقر عزة فى نفوسهم : أورثهم كبر العلم ، وكل كبر مذموم إلا كبر العلم ، فلم يكونوا يحفلون أحداً من أبناء الدنيا ، لأنهم لم يتذوقوا لذّتها حتى يداجوا فيها ، ولم يميلوا إليها حتى يتزلفوا إليهم من أجلها . كسروا قيودها وتخلصوا من رقها ، وهانت عليهم وهان أهلها . هذا هو اللورد كرومر ، وما أدراك ما اللورد كرومر ؟ ! يدخل على الشيخ محمد الانبابى شيخ الأزهر ، ويسلم عليه ؛ فيرد الشيخ التحية وهو قاعد ، فيعظم اللورد قعوده ويقعد إلى جنبه فيقول له مغضباً : « يا سيدنا الشيخ ألست تقوم للخديو ؟ » قال : « نعم » . قال : « فلم لم تقم لى ؟ » قال : « إن الخديو ولى الأمر وأما أنت فلست منا » . فيزيد ذلك اللورد إجلالا له ، ويكتبه فى أحد تقريراته لحكومته[1] .

وهذا هو رياض باشا وكان رئيس الحكومة وناظر المالية

(1) من أخلاق العلماء .

يزور مدرسة دار العلوم ، وكان الشيخ حسن الطويل مدرساً فيها ، فلا يسلم الرئيس ويدخل ؛ حتى يبتدره الشيخ من آخر القاعة ، فيقول له : « يا باشا أما آن لكم أن تجملونى معكم ناظراً ؟ » . فيدهش الباشا ويقول : « ما هذا يا شيخ حسن؟ » فيقول : « ما تسمع يا باشا ؟ » قال : « فأى نظارة تريد ؟ » قال : « المالية » قال : « لماذا ؟ » قال : «لأستبيح أموالها![1]» فذعر الباشا وخرج يرتجف ، وقال لعلى مبارك باشا ناظر المعارف : « لا بد أن تخرج هـذا الرجل من خدمة الحكومة » قال : « كيف ؟ وماذا أصنع مع علماء الأرض ، وهو عالم عالى؟ [2] » .

كذلك كانوا . زهدوا فى الدنيا لجاهم الدنيا ، وأعرضوا عنها فأقبلت عليهم ، وهابوا الله فهابهم الناس ، فكيف حالكم اليوم يا إخواننا الأزهريين ؟

***

يا إخواننا ، إن هذا الأزهر المعمور ، لبث خمسمائة سنة من عمره ، وهو منار العلم المفرد فى الدنيا لولاه لتاهت فى ظلمات الجهل ، وهو حارس الدين واللغة ، فأدركوه لا ينطفئ النار ، ويهجع الحارس ، وتترك الدنيا للظلام واللصوص .

يا إخواننا ، ما عاش الأزهر ولا عز بالعلم وحده ، وما العلم بلا عمل ؟ ولكن عز بالتقوى وبالعمل وبالخلق المتين . لقد كانت لعلماء الأزهر أخلاق لا أقول ضاعت ولكن اختفت عن الناس تلك الأخلاق ، كانوا يجلُّون مشايخهم فيجلهم الناس كلهم . هذا هو الشيخ الباجورى شيخ الجامع كان يجلس بعد المغرب فى الصحن فيقبل عليه العلماء والطلبة يقبلون يده ، وكان الشيخ مصطفى البلاط وهو أكبر منه ، ناظره فى طلب الشيخة ولم ينلها ، يندس فيهم ويقبل يد الشيخ ، فانتبه إليه مرة فأمسك به وبكى وقال : « حتى أنت يا شيخ مصطفى ؟ لا . لا » فقال الشيخ مصطفى : « نعم . وأنا ! لقد خصك الله بفضل وجب أن نقره ، وصرت شيخنا فعلينا أن نوقرك[2] » ، وكانوا يقدمون العلم على المنصب ، ويعرفون لأهله حقهم . هذا هو الشيخ الشربينى شيخ الجامع يجىء إلى الشيخ الأشمونى فيراه مضطجعاً على جنبه فيضع حذاءه بعيداً ويقبل عليه على مشهد من أهل الجامع حتى يلثم يده . وكان الأشمونى ربما قال له : « إزّيك يا عبد الرحمن ؟ » فيكون الشيخ كأنما حيّيته من فرحته بذلك اللاثكة[1] ، ولم يكونوا يدعون للعدو ثغرة يدخل منها إليهم ، ويجعلون خلافهم إذا اختلفوا ، بينهم ، هذا هو الشيخ الأمير كانت بينه وبين الشيخ القويسنى جفوة بلغت الحاكم ، وزاره الأمير فسأله عنها ، وأوهمه أن القويسنى أخبره بها وكان يريد معرفة حقيقتها ليزيلها . فقال الشيخ الأمير : « ليس بيننا إلا الخير ، وما أظن الشيخ القويسنى حدثك بشىء من هذا » وأثنى عليه ومدحه ونزل من عند الحاكم فمر به على ما كان بينهما ، وأنبأه بما كان ، فقال القويسنى : « صدقت فى ظنك ما قلت للحاكم شيئاً » قال الشيخ الأمير : « هكذا أهل العلم يسوون أمورهم بينهم ، أما مظاهرهم فيجب أن يكون قدوة فى التآلف إمساكاً على عروة الإسلام ، وحفظاً لكرامة العلم ، وزال بذلك ما كان بينهما[1] .

***

فيا إخواننا الأزهريين ، سألتكم بالله ، ارجعوا بالأزهر إلى سبيله التى درج عليها . أعيدوه سنته الأولى . أفيضوا عليه الدين والتقوى ، فالتقوى روح العلم ، فإن فارقته كان جسماً بلا روح . أحيوا فيه أخلاق الأسلاف ليكن لكم تقاهم وزهدهم ، فتكون لكم عزتهم ومكانتهم . يا إخواننا ، لم يجد والله خيراً فى الجامعة الأزهرية ، فردوا علينا الجامع الأزهر !

علي الطنطاوي

(١) من أخلاق العلماء .

(١) تعريضا برياض باشا . (٢) من أخلاق العلماء .

أنســــتاس الكرملى

١٨٦٦ – ١٩٤٧

للأستاذ مهدى القزاز

وفاة الكرملي :

فى صباح اليوم السابع من شهر يناير سنة ١٩٤٧ توفى فى المستشفى الملكى ببغداد العلامة (الأب أنستاس مارى الكرملى الحافى) أثر أمراض لازمته منذ مدة من الزمن كان يتغلب عليها بحيويته ونشاطه حتى تغلبت عليه فى الأيام الأخيرة فاضطرته إلى دخول المستشفى . وكان وهو يصارع هذه الأمراض داخل المستشفى ، يطالع ما يأتيه من الكتب ويرد على الرسائل التى ترده من الشرق والغرب ويجيب على الأسئلة ويستقبل زواره الذين كانوا يتوافدون للاطمئنان على صحته . حتى أصبحت الغرفة التى ينام فيها مجلساً للشعر والأدب والنقد اللغوى ! وكان يشترك فى بعض الأحاديث – بالرغم من مرضه الشديد ويستأنس بهذا الجو العابق بأحاديث الشعراء والأدباء الذين يفدون للسلام والاطمئنان .

وقبل وفاته بثلاثة أيام منعه الأطباء من المطالعة والكتابة ومنعوا أيضاً عنه الزيارات فعاش – رحمه الله – أيامه الأخيرة فى وحدة قاسية متألماً من شدة المرض الذى هجم عليه هجوماً عنيفاً وترك هيكله الضخم حطاماً لا يرمق، ولم يفد سهر الأطباء والعمليات التى أجريت له ومختلف أنواع العقاقير فقضى مأسوفاً عليه ، وأذاعت نعيه محطة الإذاعة العراقية ثم لجنة الترجمة والتأليف والنشر فى وزارة المعارف وتناقلت محطات الإذاعة فى الشرق والغرب هذا النعى وأبنت الفقيد بما تستحقه مكانته الأدبية وخدماته للغة العرب وتاريخهم .

تاريخ الكرملي :

ولد الكرملى فى بغداد فى اليوم الخامس من شهر آب سنة ١٨٦٦ منحدراً من أم عراقية . ولما بلغ سن الدراسة ألحقه والده بمدرسة الكنيسة اللاتينية الابتدائية ، واهتم منذ صغره بدراسة اللغة العربية ومفرداتها . وفى سنة ١٨٨٦ رحل إلى بيروت ودخل المدرسة اليسوعية الاكليركية ، وعلى يد أساتذتها درس اللاتينية واليونانية ونبغ فيهما نبوغاً عظيما دهش له الأساتذة . وكان إلى جانب دراسته هذه يدرس العربية أيضاً دراسة متصلة لا تنقطع .

ولما كان طبعه الجسور لا يستقر ولا يهدأ ، ومطامعه لا تقف عند حد فقد ترك بيروت قاصداً مدينة (شيفرمونت) فى بلجيكا فانخرط هناك فى سلك الرهبنة وانغمر فى الدراسات الفلسفية واللاهوتية ، وقد فتحت له هذه الدراسات أجواء جديدة من المعرفة . ثم ترك (شيفرمونت) إلى مدينة (لاغنو) ثم مدينة (مونبليه) فى فرنسا ، فأنجز دراسته فى الدير الكرملى هناك ورسم كاهنا باسم (أنستاس الكرملى) ولما تم له هذا النجاح سافر إلى أسبانيا وأقام هناك مدة يتنقل فى المدن الأسبانية ويدرس آثار العرب ومخلفاتهم وما تركوا من ذخائر نفيسة فى التاريخ والشعر واللغة والأدب ، واستنسخ عدة مخطوطات هامة من الأديرة والكنائس والمتاحف لا تزال محفوظة فى مكتبته العامرة إلى الآن .

وبعد أن أنهى رحلته فى أسبانيا رجع إلى بغداد فسلمت إليه إدارة المدرسة الكرملية وتولى فيها تدريس اللغتين العربية والفرنسية . ثم رأى أن هذا الجو يضيق بمعارفه وبتفكيره وما طبع عليه من انطلاق وتحرر وما فى جبلته من حب للاستزادة من البحث والدرس فترك المدرسة وانصرف للتنقيب والتأليف فى اللغة العربية وتاريخها والوقوف على أسرارها فكان لا يدخر وقتاً ومالا فى سبيل الحصول على كل مخطوط أو كتاب يرى فيه عوناً لأبحاثه ودراساته .

وفى هذا التاريخ لمع اسم (الكرملى) باحثاً وعالماً لغويا لا يجارى ، فأخذ يضع التآليف القيمة والبحوث الهامة والدراسات المفيدة وينشر فصولا فى المقتطف والهلال والمشرق وفى المجلات الأوربية التى قدرت سعة اطلاعه ونبوغه فأخذت تراسله وتعتمد عليه وتستشيره فى الشؤون التى اختص بها . كما أن دوائر الاستشراق رأت فيه عالما مطلعاً وباحثاً عبقريا فاعتمدته فى أبحاثها ودراساتها والإشراف على بعض ما يشكل عليها فى تاريخ اللغة والأدب .

وفى سنة ١٨٩٦ أنشأ (الكرملى) جريدة (العرب) فماشت أربع سنوات ثم مجلة (دار السلام) التى عاشت سنة واحدة . وفى سنة (١٩١١) أصدر مجلة (لغة العرب) فكانت من أرقى المجلات العربية فى العالم العربى حرر فيها نخبة من كتاب العراق والبلاد العربية ، وقد عاشت هذه المجلة عدة سنوات ثم أغلقت . وعند إعلان الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ نفى الكرملى خارج العراق بسبب ميوله الوطنية ثم أفرج عنه ، وفى هذه الأثناء انتخب عضواً فى مجمع الشرقيات الألمانى وذلك سنة ١٩١٦ وبعد ذلك انتخب عضواً فى المجمع العلمى العربى بدمشق ثم عين عضواً فى المجمع الملكى المصرى للغة العربية .

وانصرف الفقيد بعد ذلك إلى التأليف وحضور المؤتمرات اللغوية ، وكان دائب السفر بين بغداد والقاهرة والقدس وبيروت باحثاً ومستقصياً ومستنسخاً ، حتى تمكن من تأليف ما يقارب الأربعين مؤلفاً فى الآداب واللغة والفلسفة والدين ، ومن أهم كتبه المطبوعة (الفوز بالمراد فى تاريخ بغداد) و (مختصر تاريخ العراق) و (جمهرة اللغات) و (كتاب الجوع) و (كتاب العجائب) و (كتاب أديان العرب) وغير ذلك من الكتب المهمة ؛ كما أنه وضع معجماً عربياً خطيا بعد حجة فى بابه . وله معجم (عربى فرنسى) مطول . أما كتبه وتآليفه غير المطبوعة فكثيرة ومهمة جداً نأمل أن تقوم وزارة المعارف بطبعها خدمة للغة العربية وتاريخها ولذكرى الفقيد الراحل .

وكان الكرملى يتقن إلى جانب اللغة العربية اللغات اللاتينية واليونانية والفارسية والتركية والانكليزية والفرنسية والأسبانية؛ وله أبحاث عديدة فى هذه اللغات نشرتها مجلات الغرب فى حينها وكلها تتناول لغة العرب وتاريخهم وآثارهم .

مكتبة الكرملى :

يملك الفقيد مكتبة تعد من أنفس المكتبات فى العالم العربى بما حوته من كتب مخطوطة ومطبوعات نادرة . جمعها من مختلف بلاد الشرق والغرب وبذل فى سبيلها أموالاً كثيرة حتى كان رحمه الله يتجشم مشاق السفر فى سبيل الحصول على مخطوط أو استنتاخه مهما بعد المكان والقطر . ويقال إن مكتبته تحوى فى الوقت الحاضر على ما يقرب من (١٤) ألف مجلد بمختلف اللغات جمعها الفقيد فى خمسين سنة .

وحر .ا على هذا الكنز النفيس من الضياع وحرمان الجمهور من فوائده وتمكيناً للعلماء والباحثين والطالمين من ارتياد هذه المناهل فقد تقرر بعد وفاته تأليف لجنة لتنظيم شؤون هذه المكتبة وإدارتها وإيجاد عمارة خاصة بها تفتح أبوابها للباحثين من رواد العلم . وتأخذ هذه اللجنة على عاتقها طبع تآليف العلامة الفقيد والمخطوطات النفيسة الأخرى . والمتوقع تأليف هذه اللجنة من صاحبى المعالى الدكتور حنا خياط ويوسف غنيمة وبعض الأفاضل

وقد علمنا أن اللجنة الثقافية فى الجامعة العربية قد عهدت إلى مندوب العراق فى الجامعة إبلاغ الحكومة العراقية رجاء اللجنة فى أن تقتنى الحكومة مكتبة المرحوم الكرملى قبل أن تضيع وتتبعثر

أدب الكرملى :

نشأ الكرملى نشأة دينية وتثقف ثقافة فلسفية، وعكف على دراسة اللغة العربية واللغات الأخرى وانصرف لبحوث التاريخ . وبرع فى علوم اللاهوت واشتغل أكثر سنوات عمره بتأليف الكتب التاريخية والفلسفية والدينية . وكان رائداً من رواد اللغة العربية وتاريخها . ولذا تجلت عبقريته فى هذا اللون من الأدب وحده . وكان حافظاً وراوياً من الطراز الأول لكثرة ما قرأ من الكتب وطالع من الأسفار وتتبع من الحوادث .

كان الفقيد يعقد مجلساً أدبياً بداره فى (دير الكرمليين) فى يوم الجمعة من كل أسبوع ، وكان يختلف إلى هذا المجلس صفوة مختارة من الشعراء والأدباء والمؤرخين والصحفيين وبعض الأساتذة والطلاب . تختلف أذواقهم ومشاربهم . ولكن تجمعهم رابطة الأدب واللغة وحب البحث والجدل وتذوق هذه الألوان الفكرية التى كانت تدور فى هذا المجلس الذى كان دائماً يعمر بالرواد فيبحثون فى قضايا الأدب والنقد والشعر ويثيرون بعض المسائل الفكرية التى تتخذ فى النهاية شكلا من أشكال الجدل يطلع منه المرء على تيارات مختلفة من الأفكار والنزاع والأهواء .

وكان الكرملى يشترك فى جميع المباحثات والمناقشات الفكرية التى تدور فى مجلسه ويديرها ، وإذا لزم الأمر يبرز ما لديه من المراجع والمستندات والوثائق التى تزدحم بها مكتبته العامرة فى مختلف اللغات واللهجات للبرهنة على وجهة نظره وتأييد فكرته

وكنت من الذين يحضرون مجالس الكرملى الأدبية هذه ويشتركون فى بعض المناقشات التى تثار فى قضايا الأدب والفكر

الأدب في سير أعلامه :

٢ ـ تولســـــتوى . . . !

[قمة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

طفولة ونسب



دخل ليو حجرة الدراسة وأسلم إلى مرب يعلمه ويقوم على تنشئته ، وكان هـذا المربى ألمانى الجنس وهو تيودور رويـل ، وكان من عادة سراة الروس أن يختاروا لأبنائهم مربين من الأجانب ليعلموا هؤلاء الأبناء اللغة الأجنبية التى تراد لهم وهم صغار وذلك بالحوار والمرانة لا بالقراءة فى الـكتب فحسب ، ولقد كان تيودور رويل هـذا من الشخصيات التى تأثر بها الصبى تأثراً شديداً منذ دخل حجرة الدراسة ، والتى ظل أثرها عالقاً بنفسه مدى حياته الطويلة ؛ إذ كان المربى مستقيم الخلق كريم الطبع عطوفاً على تلميذه فى غير ضعف ، شديداً عليه فى غير عنف ، مخلصاً فى عمله إذا هم بأداء واجب ، ولا يبخل بجهد يرى فيه صلاح تلميذه مهما أرهقه هذا الجهد ، وبهذه الصفات الطيبة أو بهذه القدوة الحسنة أثر المعلم فى تلميذه وهيأ الجو الصالح لنمو الصفات الطيبة فى نفس ذلك الصبى ...

فإذا انطلق الطفل من حجرة الدراسة كانت العمة تاتيانا أول من يلقى فما يطيق البعد عنها ، وإن حبه إياها ليصغر دونه كل حب ، وإن أثرها فى نفسه ليقل عنده كل أثر ، وسيكبر الصبى ويخرج من نطاق البيت إلى مضطرب الحياة ويظل أثر العمة تاتيانا قوياً فى نفسه ، ويظل شخصها حياً فى حسه ، وتظل صورتها ماثلة فى خاطره . وسيعبر عن هذا كله فيما يتناوله قلمه من ذكريات الحياة ومشاهدها . تجد مثلا لذلك فى قوله : « إنى لأتذكر ذات يوم وأنا ابن خمس كيف اندسست خلف أريكة كانت تجلس عليها فى الثوى ، وكيف مدت إلىّ يدها ومست جسدى فى حنو ورفق ، وكيف أمسكت بيدى تلك اليد وقبلتها

فكان لا يرضينى هذا التزمت فى الأدب الذى تفرضه أبحاث العلامة الكرملى ومناقشاته ، فقد كان يحاول دائماً أن يضع للأدب مقاييس وقيوداً وحدوداً لا يتعداها ولا يرى فى الانطلاق والتحرر إلا خروجا وخطأ وجريمة ... وكان تفكيره الرتيب الذى جاء نتيجة دراساته الجافة لا يسمح له بالتجوال إلا فى آفاق محدودة ودوائر خاصة لا يتعداها ولا يسمح لنفسه بالخروج منها . ولذا كان لا يستسيغ هذا اللون من الأدب الحديث الذى برع فيه ناشئة الأدب فى البلاد العربية وتحرروا فيه من قيود الماضى وانطلقوا يكتبون فى أجواء حرة وأساليب حديثة .

لم يكن الكرملى أديباً خلاقا أو باحثاً مبدعا ، ولم يترك له أثرا فى الحياة الفكرية فيه هذا اللون المشرق الذى يغذى العواطف ويهز القلوب ، ويفتح كوى مشرقة فيها أضواء وأخيلة وأنداء وجنائن مسحورة يعبق جوها بالأمانى والأحلام تترك الشعور يحلق فى متاهات بعيدة وآباد مجهولة فيها أمواج من النعيم وسحر غريب له لذة وفيه نشوة ، كما نشاهد فى أدب الزيات وطه حسين والحكيم وغيرهم من أساتذة اللغة والبيان .

إن عبقرية الكرملى وإشراق ذهنه فى اللغة العربية وتاريخها ودراسته المتصلة للغات القديمة والحديثة ونشاطه المعروف فى التتبع والبحث والتأليف لو أضاف إلى كل ذلك إشراق العبارة وذهنية تشرك عقلها وقلبها فيما تنتج وتفكر لعد من العباقرة الخالدين فى الأدب العربى . ولكن هذا التحنيط والجمود فى أسلوبه قلل من أثره فى الحياة الفكرية وجعله أشبه بمعجم لا يراجع إلا عند الحاجة إليه .

إن اسم (الكرملى) سيخلد فى مجامع الشرق والغرب كعلم من أعلام اللغة والدين والفلسفة خدم بتتبعه لغة العرب وترك فيها آثارا عديدة ونور عقولا وأذهانا ؛ وكان فخر أمته ، وعقلا عبقريا من عقولها فى الخارج .

بغداد — مهدى فزاز

ودموع الحب فى عينى ... لقد كان للعمة تانيانا أعظم الأثر فى حياتى ، فمنذ الطفولة الباكرة علمتنى كيف تكون بهجة النفس فى روحانية الحب ، ولقد علمتنى هذه الفرحة لا بكلامها فحسب بل إنها ملأتنى حباً بكيانها كله . لقد رأيت ولقد أحسست كيف كانت تمتع نفسها بنعمة الحب ، ومن ذلك فهمت بهجة الحب ، وهذا أول ما علمتنيه . ثم إنها بعد ذلك علمتنى نعيم الحياة المطمئنة الهادئة » .

وحق له أن يحب هذه السيدة التى يدعوها عمته كما يفعل إخوته والتى تقوم منهم جميعاً مقام الأم وقد حرموا من أمهم . وكان ليو منذ صغره مرهف الحس متقد العاطفة تأسره الكلمة الطيبة وتثيره الكلمة القاسية فما يملك أن يحبس دمعه . وعرفت عمته تاتيانا كيف توحى إليه ما تحب من المعانى العاطفية ...

وليس يذكر ليو أمه فقد ماتت وهو دون الثانية بقليل ، وكانت سيدة كريمة المحتد نبيلة الخلق عالية الثقافة ، تقية رحيمة القلب مرهفة الحس مهذبة الذوق ، تتكلم خمس لغات ولها بالموسيقى شغف عظيم ولها مقدرة ملحوظة فى العزف على البيان ، وموهبة فى سرد القصص جعلت لها شهرة عظيمة فى هذا الباب حتى لقد كانت فى حفلات الرقص تجتذب إليها كثيرين ممن يفضلون أن يستمعوا إليها على أن يشهدوا ما يدور فى تلك الحفلات ، وكان الطفل يستمع إلى سيرتها فى اهتمام كلما تحدث عنها الخدم أو تحدثت عنها العمة تاتيانا ، فتقوم فى ذهنه صورة لها تطمئن لها نفسه ويبتهج فؤاده ، وتظل هذه الأحاديث تهجس فى خاطره فتزداد صورة أمه وضوحاً فى نفسه كلما تقدم به العمر فاذا كتب عن أمه غدا فيما يكتب قال : « لست أذكر أمى ؛ لقد كنت ابن سنة ونصف حين ماتت ، وبسبب مصادفة عجيبة لم تحفظ لها صورة ، وعلى ذلك فلا أستطيع أن أرسم فى خيالى صورتها المادية . وإنى لفرح بهذا من وجهة نظر هى أن ما يقوم بذهنى لها إذ أتصورها إنما هو صورتها الروحية ، وكل ما أعلمه عنها من هذه الناحية جميل ، وأظن أن ذلك لم يكن مرده إلى أن من يتحدثون عنها لا يذكرون لى إلا الخير وإنما كان مرده إلى أن نفسها كانت تنطوى على كثير من الخير حقاً » .

ويبقى فى ذاكرته من أحاديث الناس عنها الشىء الكثير ، ولكنه معجب بصفة من صفاتها يراها خير الصفات جميعاً ويشير إلى ذلك فى قوله « إن أرفع خلالها قيمة هى أنها كانت على حرارة مزاجها وسرعة تأثرها تضبط نفسها أبداً ، ولقد يحمر وجهها ولقد تبكى كما أخبرتنى خادمتها ولكنها لا تلفظ قط لفظة نابية بل إنها لا تعرف واحدة من تلك الكلمات » ، ويقول عنها كذلك « إنها كانت تبدو فى خيالى مخلوقاً علوياً روحياً طهوراً وبلغت من ذلك حداً جعلنى فى الحقبة الوسطى من عمرى إبان جهادى ضد المغريات والوساوس القاهرة أتجه إلى روحها مصلياً مبتهلا إليها فى صلواتى أن تأخذ بيدى . ولقد كان لى فى أكثر الأحيان فى هذه الصلوات كثير من العون » .

ذلك أثر أمه فى نفسه وإن لم يرها ، أما أبوه فقد كان يحس ليو طيب قلبه وشدة عطفه على أبنائه ، وكان يحب قصصه التى يتلوها عليهم أثناء الطعام كما كان يراه رفيقاً بهم لا يمنعهم عن زياطهم ولا يضيق بهم إذا دخلوا عليه حجرة مكتبه ؛ وكان يعجب ليو بوجاهة أبيه وأناقة ملبسه إذا تأهب للذهاب إلى المدينة ، وبمهارته ونشاطه وجمال طلعته إذا خرج للصيد . وكم كان ينظر إليه فى إعجاب ومحبة وهو جالس فى مركبته وحوله عن قرب خدمه وكلاب صيده ... كم كان يداخل الطفل شعور الإعجاب به لما يرى من هيبته ؛ واستطاع خياله الناشىء واستطاعت عيناه الصغيرتان أن تنفذا إلى سر تلك الهيبة وهو احترام الرجل نفسه وصونه كرامته فما يطأطىء أبوه رأسه أو يخفض صوته أو يغير لهجته لدى أى كبير من الحاكمين مهما علا مقامه ؛ ثم إنه يفطن إلى معنى آخر يحبب أباه إليه ، وذلك أنه على ترفعه واستكباره أحياناً على مزارعيه ، يعطف عليهم فلا يرضى لهم بالعقوبة البدنية ولا يحب أن يرهقهم بالعمل ، فإذا حدث لهم شىء من ذلك كان على غير علم منه وإذا علم بشىء منه نهى عنه واشتد فى النهى وأخلص فيه .

وسيرث ليو صفات أبيه فيكون عطوفاً رؤوفاً يكره العنف على المزارعين ويحب أن يعلمهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ؛ ولكنه كذلك سوف ينشأ معتداً بذاته كثير الذهاب بنفسه سريع الميل إلى ازدراء غيره ، ومهما حاول التغلب على تلك النزعات فى طبعه غلبته على أمره فى كثير من المواقف فيزهى ويتكبر ولا يقوم فى نفسه إلا شعوره بما نشأ فيه من أيامه من دلائل العظمة والثراء وعراقة الأصل ، وحسبه أن ليس هناك فى ياسنايابوليانا وما حولها قوم لهم السيادة والجاه منذ عهد بطرس الأكبر إلا آل تولستوى ...

وأحب ليو إخوته حباً شديداً وأحب اللعب معهم كلما أطلقهم المربى من حجرة الدراسة ؛ أحب أكبرهم نيقولا لأنه يعلم كل شيء ولأنه عطوف عليه مرح فكه الحديث ، وراء ليو لايبارى فى سرد الحكايات والقصص الجميلة وفى رسم الصور المختلفة الأشكال والألوان ، وأحب سيرجى لوجاهة منظره وأعجبه منه حبه الغناء واللهو وكبرياؤه وعدم مبالاته بما عسى أن يقول عنه القائلون ؛ أما ديمترى وهو أقرب الثلاثة إليه سناً فكان يأنس بهدوئه وابتسامته الحلوة وعاطفته الرقيقة ...

وكانت من أحب الألعاب إليه تلك اللعبة التى ابتكرها نيقولا ؛ فقد أسر إليه أنه اهتدى إلى نوع من السحر يستطيع به أن يحمل الناس جميعاً على ظهر الأرض أحباباً بعضهم لبعض ، وأن سحره هذا منقوش على غصن أخضر دفنه فى مكان ما بالقرب من موضع حدده لهم ، ثم دعاهم إلى الجلوس معاً جنباً إلى جنب فى بقعة صغيرة يظللهم سقف واحد كما تفعل النمل لتكون لهم مثل أخوة النمل ومحبة جماعاته ، فأقبلوا حيث جلسوا تحت غطاء من القماش وضموه على بعض الكراسى وتلاصقوا هنا وهناك فى تعاطف ومودة ، وأخذ يحدثهم نيقولا أنه بالحب المشترك المتبادل يستطيع الناس أن يكونوا إخوة ، وهكذا صارت هذه اللعبة من أحب الألعاب إلى الأخوة ؛ ولكم تجمعوا تحت خوان أو فى ركن من الأركان ومثلوا أخوة النمل ، وأحدثت اللعبة أثرها فى خيال ليو ووجدانه فقبل أن يبلغ السادسة من عمره يستقر فى نفسه حلم لذيذ عن عالم جديد يرتبط فيه الناس بعضهم ببعض برباط الحب والمودة حتى يصبحوا بذلك إخواناً ...

استقر هذا الحلم فى نفس الطفل وهو دون السادسة وما زال مستقراً فيها حتى بعد أن جاوز السبعين من عمره فقد كتب إذ ذاك يذكر ذلك الحلم فقال : « إن ذلك المثال وهو أخوة النمل وتعلقنا بعضنا ببعض متحابين بقى قائماً فى نفسى لا يتغير وإن لم يعد كما كان أمس تحت قماش يظلل كرسيين عاليين فهو اليوم عندى تعلق البشر بعضهم ببعض متحابين تحت غطاء عظيم هو قبة السماء ، وكما صدقت يومئذ أن هناك عصاً صغيرة خضراء نقشت عليها تلك الرسالة التى تمحق الشر كله فى نفوس الناس وتهيىء لهم السعادة العامة فكذلك أعتقد اليوم أن هذه حقيقة ممكنة وسوف تنكشف للناس وسوف يمنحهم كشفها كل ما تعدهم به من سعادة » .

ولقد أوصى تولستوى فيما بعد أن يدفن حين يموت حيث دفنت تلك العصا الخضراء . فى تلك البقعة التى صارت حبيبة إلى قلبه من أجل ذلك الغصن الأخضر الذى أوحى إلى نفسه أن يتحاب الناس جميعاً ويتآخوا على نحو ما تنطق به قصة أخيه ؛ ولقد دفن فملأ الكاتب العظيم فى الموضع الذى عينه أخوه مثوى للغصن الأخضر وذلك بعد ستة وسبعين عاماً من قصة ذلك الغصن !

وحدثهم نيقولا حديثاً آخر أبهج نفوسهم الصغيرة وملأها شوقاً وتطلعاً وذلك أنه سيقودهم إلى تل ما وسيبلغ بهم قمته ، فإذا بلغوها وطلبت نفوسهم أى شيء فلا يلبثون دون أن يكون بين أيديهم ، ولكنه لن يقودهم إلى ذلك التل إلا أن يجيبوه إلى ما يطلب إليهم أداؤه ، فعلى كل منهم أن يقف فى ركن فلا يتجه ذهنه لحظة إلى دب أبيض أى عليه ألا يخطر بباله هذا الدب ، وعليه أن يمشى مستقيماً على شق بين الألواح الخشبية فلا يميل ، ثم عليه أن يمتنع عاماً كاملا عن رؤية أرنب حى أو ميت أو معد المائدة ، ومن أخذ نفسه منهم بهذه الشروط فليقسم أن تظل سراً لا يفشيه إلى أحد .

وكم اتجه ليو بخياله ووجدانه إلى ذلك الغصن الأخضر يود أن يعلم ما نقش عليه من سحر ، وإلى ذلك التل العجيب يتوق أن يبلغ قمته ، وما علمه أخوه إلا أخوة النمل وإلا تلك الشروط التى لا بد من أدائها لمن يطمع أن يبلغ قمة التل ...

ويتطلع ليو إلى سيرجى يريد أن يكون مثله ، تحدثه نفسه إذا قارن بينه وبين نيقولا أنه يفضل أن تكون له وجاهة سيرجى ولو أنه معجب بأقاصيص نيقولا وسحره ونكاته ؛ وهو مولع بتقليد سيرجى فيما يعمل ، ولكنه يألم ألا يستطيع أن تكون له مثل وجاهته فلن يجدى فى ذلك تقليد ، وكانت وجاهة أخيه أحب صفاته إليه فما أشقاه أن تكون هى الصفة التى تستعصى عليه ؛ وإنه مهما حاكاه فى الغناء واللهو والاعتداد بالنفس فلن يزال يشعر بعدم الرضا إن لم يكن له ما لأخيه من حسن السمة وجمال الطلعة ؛ وثمة شيء آخر لا يستطيع ليو أن يحاكى فيه أخاه ، وذلك عدم مبالاة سيرجى بما عسى أن يقول الناس عنه ، فهو لم يكن يوماً معنياً بنفسه وإنما يسير على سجيته لا يشغل باله بالتفكير فى ذاته ، وقد خلق ليو على نقيض أخيه فهو بنفسه معنى منذ صغره ، عظيم الاهتمام بآراء الناس عنه ، شديد الإحساس بذاته ، كثير الانطواء على نفسه ، وتلك خلة أتعبته منذ نشأته وستكون منبع كثير من متاعبه فى مستقبل الأيام .

(يتبع) الخفيف

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٨٥٦ – قرآن النبي وقرآن المتنبي ...!

تاريخ بغداد للخطيب : أبو على بن أبى حامد قال : سمعت خلقاً بحلب يحكون — وأبو الطيب المتنبى بها إذ ذاك — أنه تنبأ فى بادية السماوة ... وكان قد تلا على البوادى كلاماً ذكر أنه قرآن أنزل عليه ، وكانوا يحكون له سوراً كثيرة ، نسخت منها سورة ضاعت ، وبقى أولها فى حفظى ، وهى : « والنجم السيار والفلك الدوار والليل والنهار إن الكافر لفى أخطار . امض على سننك ، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين ، فان الله قامع بك زيغ من ألحد فى دينه ، وضل عن سبيله » وهى طويلة ، لم يبق فى حفظى منها غير هذا ...

قال أبو على بن أبى حامد : قال لى أبى ونحن فى حلب وقد سمع قوماً يحكون عن أبى الطيب هذه السورة : لولا جهله[1] ، أين قوله : امض على سننك إلى آخر الكلام من قول الله تعالى : [فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين] .

إلى آخر القصة ، وهل تتقارب الفصاحة فيهما ، أو يشتبه الكلامان .

٨٥٧ – جل (الكتاب) عن الشبيه

فى شرح النهج لابن أبى الحديد :

قد اشتملت كتب المتكلمين[2] على المقايسة بين كلام الله

(١) لم يقل مقولته . حذف الجواب للعلم به .

(٢) علماء الكلام : التوحيد . فى صبح الأعشى : سمي بذلك (علم الكلام) لأنه لما وقع القول بخلق القرآن فى صدر الاسلام ممن وقع كثر الكلام والخوض فى ذلك فأطلق على أصول الدين علم الكلام وبقى علما عليه .

تعالى وبين كلام البشر ليبينوا فضل القرآن وزيادة فصاحته على فصاحة كلام العرب نحو مقايستهم بين قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) وبين قول القائل : القتل أنفى للقتل[1] ونحو مقايستهم بين قوله (خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين) وبين قول الشاعر :

فإن عرضوا بالشر فاصفح تكرماً
وإن كتموا عنك الحديث فلا تسل

ونحو إيرادهم كلام مسيلمة وأحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى وعبد الله بن المقفع والموازنة والمقايسة بين ذلك وبين القرآن المجيد وإيضاح أنه لا يبلغ ذلك إلى درجة القرآن العزيز فى الفصاحة ولا يقاربها .

٨٥٨ – ... لا يأتوا بمثل هذا القرآن

فى (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) لتقى الدين ابن تيمية :

الصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضة القرآن ، لا يقدرون على ذلك ، ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن ، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه[2] لكل من له أدنى تدبر كما أخبر به فى قوله : (قل : لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) وأيضاً

(١) فى مقالتى : (قصة الكلمة المترجمة) فى الرسالة الغراء : ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ س ٦ بحث مستفاض فيه فى هذه الكلمة وأصلها وقائلها .

(٢) فى (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) : لابن حزم :

ما منهم أحد يتكلف معارضة القرآن الا افتضح وسقط ، وصار مهزأة يتماجن به وبما أتى به . وقد تعاطى بعضهم ذلك يوما فى كلام جرى بيني وبينه فقلت له : اتق الله على نفسك ، فان الله قد منحك من البيان والبلاغة نعمة سبقت بها ووالله لئن تعرضت لهذا الباب باشارة ليسلبنك الله هذه النعمة ، وليجعلنك فضيحة وشهرة ومسخرة وضحكة كما فعل بمن رام هذا من قبلك ، فقال لى : صدقت (والله) وأظهر الندم والاقرار بقبحه .

فى (إعجاز القرآن) للباقلانى : والذى يصور عندك ما ضمنا تصويره ويحصل عندك معرفته ... — أن تنظر أولا فى نظم القرآن ثم فى شيء من كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) فتعرف الفصل بين النظمين والفرق بين الكلامين .

فالناس يجدون دواعيهم إلى المعارضة حاصلة لـكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة ، ولوكانوا قادرين لعارضوه، وقد انتدب غير واحد لمعارضته لـكن جاء بكلام فضح به نفسه ، وظهر به تحقيق ما أخبر به القرآن من عجز الخلق عن الأتيان بمثله .

٨٥٩ — المتنبي

فى خزانة الأدب للبغدادى : إيضاح المشكل لشعر المتنبى من تصانيف أبى القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى :

حدثنى ابن النجار ببغداد أن مولد المتنبى كان بالـكوفة فى محلة تعرف بكندة بها ثلاثة آلاف بيت ، واختلف إلى كتاب ، فيه أولاد أشراف الـكوفة ، فـكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً ، فنشأ فى خير حاضرة ، وقال الشعر صبياً ، ثم وقع إلى خير بادية فادعى الفضول الذى نبز به ... وهو فى الجملة خبيث الاعتقاد، وكان فى صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالـكوفة من المتفلسفة فهوسه وأضله كما ضل ، وأما ما يدل عليه شعره فتلون وقوله :

هون على بصر ما شق منظره فإنما يقظات العين كالحلم

مذهب السوفسطائية ، وقوله :

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام

فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

مذهب التناسخ وقوله :

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه

فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تربه

مذهب القضائية ، وقوله فى أبى الفضل بن العميد :

فإن يكن المهدى من بان هديه

فهذا وإلا فالهدى ذا فما المهدى ؟

مذهب الشيعة وقوله :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم

إلا على شجب والخلف فى الشجب

فقيل تخلص نفس المرء باقية

وقيل تشرك جسم المرء فى العطب (١)

(١) رواية الديوان : فقيل تخلص نفس المرء سالمة .

فهذا من يقول بالنفس الناطقة ، ويتشعب بعضه إلى قول الحشيشية (١) . والإنسان إذا خلع ربقة الإسلام من عنقه ، وأسلمه الله (عز وجل) إلى حوله وقوته وجد فى الضلالات مجالا واسعاً ، وفى البدع والجهالات مناديح وفسحاً .

٨٦٠ — وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

المتنبى :

تركت مدحى للنبى تعمداً إذ كان وصفاً مستطيلا كاملا

وإذا استطال الشىء قام بنفسه

وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا (٢)

(١) الاسماعيلية الباطنية . ومن ألفاظ الجماعة : النفس الـكلية والعقل الفعال ... وللامام الغزالى فى الباطنية هذا القول : « الباطنية ظاهرها الرفض وباطنها الـكفر المحض » ومن أقوالى فى الاسماعيلية : « الاسماعيلية جسر بين الاسلام والالحاد » .

(٢) وجدت الشعر فى كتابين منسوبا إلى المتنبى ، وفى إحدى روايتيه « الوصى » والوصى عند إخواننا الأمامية هو على (رضي الله عنه) والوصية عندهم من الاركان .

الحيـــــاة الأدبية
فى طرابلس الغرب
بين الماضى والحاضر

للأستاذ صلاح الدين بن موسى

لعل الحديث عن الأدب وأهله فى هذا القطر العربى البائس أمر فيه شىء كثير من الغرابة عند أبناء العروبة الذين ارتسمت فى مخيلتهم وأفكارهم صور مبهمة غامضة عن طرابلس الغرب — أو (لوبيا) كما يحاول أن يسميها بعض المتأخرين — فهم لايعرفون عن هذه البلاد إلا قوماً خربت ديارهم وخربت مدنهم، وأصابهم من ويلات الحرب ما تركهم فى غفلة أو حيرة، هم بسببها بعيدون كل ماله صلة بالحياة الروحية شعرية كانت أم نثرية، وإن أسباب المعيشة وذلك الفقر المدقع فى الغذاء والكساء كانا حائلا دون انصراف القوم لتثقيف عقولهم وتحقيق النهضة الأدبية بينهم، تلك هى الصورة الخاطئة التى ترتسم هذه الأيام فى أذهان بنى يعرب ويصرحون بها فى مجتمعاتهم الأدبية وأنديتهم الثقافية.

لهذا وقد وقفت على الحقيقة الناصعة ولمست روح النهضة الأدبية فى بلاد (ليبيا) أحببت أن أجمل من حديثى هذا على صفحات «الرسالة» معرضاً للفكر الحديث والنهج الأدبى فى طرابلس عساى بذلك أكون قد حققت قسطاً من واجبى نحو قطعة غالية من بلاد العروبة ...

قبل الحديث عن نهضة طرابلس الغرب الحديثة سأحاول أن أعطى للقارئ صورة صادقة لتدرج الحياة الأدبية منذ العهد العثمانى حتى وقتنا هذا فيرى تطور الروح الأدبى ونمو الذوق الشعرى خلال هذه الحقب المتتالية ومبلغ التقدم الذى حازته هذه البلاد فى زهاء ربع قرن تقريباً ..

كانت النهضة الأدبية زاهرة يانعة، قبل احتلال الطليان طرابلس الغرب وكان فيها كثير من الأدباء المجيدين والشعراء الملهمين نذكر منهم: الشيخ على سيالة صاحب المعلقات الشهيرة، والشيخ محمود نديم بن موسى، والشيخ ابراهيم باكير، والأستاذ العلامة سعيد المسعودى وآخرين ممن ساعدوا على نشر اللغة العربية وبعث مبادئ الحرية والحياة الصحيحة المستقلة.

وكانت جريدة (الرقيب العتيد) خير رسول أمين للنهضة الأدبية تنقل منتجات عقول الأدباء ووحى شعورهم أو تفكيرهم، وكان لصاحبها الشيخ محمود نديم بن موسى اليد الطولى فى تشجيع الأدباء ورفعهم إلى المستوى الثقافى الرفيع، فأنشأ بمساعدة بعض الأدباء نادياً للثقافة والأدب كان يلقى فيه المحاضرات المختلفة فى السياسة والأدب والإجتماع وبعقـــد الإجتماعات الأدبيـة والمساجلات الشعرية والملاحم التمثيلية.

وكان الإستعمار الإيطالى، فطغى على تلك الأفكار الوثابة وغمرها بسيل من التبلبل والإرتباك وسد عليها المنافذ فلم تجد ما تتسرب منه وتسمع صوتها، وأمسى هـذا الوضع السياسى يسيطر على العقول ويصرف نتاج الأدباء فيما يعود عليه بالراحة والإطمئنان ويعمل مامن شأنه جلب الأهلين إليه ومحبتهم له واستسلامهم لما يريد بهم المستعمر، فكنت ترى الأديب منهم يذيب دماغه ويشحذ قريحته فى نظم قصيدة أو رصف مقال فى مدح الحاكم وسياسة دولته مما أقعدهم عن مجاراة الأمم العربية وأبعدهم عن الأدب المصرى الذى يتناول كل ناحية من نواحى الحياة وحصره ضمن نطاق ضيق، فالإستعمار الإيطالى أطفأ هذا السراج الذى أخذ يضىء ماحوله وأخمد جذوة هذا الروح الفياض، وأضحى الأدب منصرفاً إلى غير مايقوم الحياة الحقيقية والإستعمار يناهضه ويسعى بكل ما أوتيه من قوة فى إبعادهم عما يرتجى من الأدب وإقصائهم عن غايته الشريفة ويقف عثرة فى سبيل الوصول إلى حقائقه المرجوة.

... كانت الحرب الثانية وبالا على طرابلس الغرب قاسى أهلوها من مصائبها الشىء الكثير، فشردوا فى أقاليم القطر المختلفة وهجروا المدن العامرة، وسواعق الأساطيل وقذائف

الطائرات تدك البيوت القائمة وتهدم شوامخ القصور بين عويل النساء وأنين الشيوخ .

لهذا كان من الطبيعى أن تهمد الروح الأدبية تماماً فى هذه البلاد ويسود القطر ظلام وجهل يبعث الأسى فى النفوس ، وكانت سنو الحرب فى طرابلس مرحلة فتور وجمود فى الحياة الأدبية بل فى الحياة العلمية بصورة أعم ، فكانت مدارس القطر مغلقة والطلاب مشردين والشباب الذى كان يتذوق شيئاً من الأدب أضحى طريداً فى القفار ، وبات القلق يسيطر على السكان ويبعث فيهم الرهبة والخوف . وانجلت الحرب عن ديار أصابها الخراب والدمار ، وشعب أخره التفرق والشقاق وقد تربع الجهل على منصة البلاد فلا علم ولا أدب ولا صحف ولا نواد .

وكان فى طرابلس الغرب بعض من ذوى العلم والعرفان ممن سلموا من براثن الحرب الضروس فشمروا عن ساعد الجد والعمل وبدأوا صراعاً عنيفاً بين الجهل والعلم ، يؤازرهم فى عملهم هذا عدد من رجال الدين وضباط الوصاة البريطانيين فكان لنشاطهم هذا أثره فى ازدهار الحياة العلمية والأدبية فى سنين قليلة وانتشار المدارس العلمية والأندية الثقافية المنوعة فأقبل الشباب الطرابلسى ينهل من موارد العلم والأدب فى مصر ويعود إلى بلاده مزوداً بثقافة رفيعة ساعدت على تطور الحركة العلمية والأدبية فى البلاد .

وكان إقليم برقة أسبق من طرابلس فى مضمار الحياة الأدبية ، ولعل قربه من مصر خصه بهذه المزية السامية الرفيعة ، فسرعان ما أنشئت فيه نواد مختلفة للأدب والعلم ، منها نادى عمر المختار ، والنادى الثقافى اللذان كان عملهما مقتصراً على مدينة (بنغازى) إذ بثا فيها الروح الأدبية شعرية كانت أم نثرية فنبغ الشعراء والكتاب الذين رأوا فى صحيفة (برقة الجديدة) ميداناً فسيحاً للتعبير عن شعورهم والإفصاح عما تجيش به نفوسهم . ولعل صاحب هذه الجريدة الفتية الأستاذ « صالح البوصير » فى طليعة الشباب العاملين فى الحقل الأدبى فقد قرأنا له فى صحيفته مقالات مختلفة فى الأدب والعلم والإجتماع . وهناك الشاعر الملهم السيد « ابراهيم محمد الهوينى » وله قصائد رائعة نشرتها له « برقة الجديدة » تباعاً وفى إحداها قوله مادحاً سمو الأمير إدريس السنوسى :

نظمت شعور القلب حتى غدا شعراً
وهذبت هذا الشعر حتى انثنى دراً
ومن ذا الذى يسطيع مدحاً لعنصر
تسامى فكان النجم والشمس والبدرا

أمير كأن الله أعطاه حكمة   أذل بها الأعداء وقاد بها الدهرا
فأهلا بعهد قد أنيرت سماؤه   وبعداً لهذاك الزمان الذى مرا

***

ومن الشعراء الشبان الذين أنجبتهم برقة السيد « محمد بشير المغربى » ومن درر قوله هذه القطعة الجميلة فى شكوى الحياة والأصحاب :

على أى جنب فى الحياة أميل   ومالى فى ظل الزمان مقيل
وأى سراب قد أضل مشاعرى   وظل به ماء اللجين يسيل
أسير وما هذا الطريق بموصل   لأمر وقد لايستطاب وصول
دعوت رفاق للوقوف وإنهم   قليل وما بين الرفاق دليل
فجاوبنى منهم تقلب أوجه   رأيت به ما فى الصدور يجول
فقلت لهم سيروا وحسبى وقفة   وصبر على قبح المقام جميل
وأى مقام قد أقمت فليتنى   رحلت ولو أن الرحيل قفول
نسير فرادى والطريق إلى المنى   له شعب دون المدى ووصول
وللدهر والآمال بين صدورنا   صراع ودقات القلوب طبول
ألا إن أسباب النجاح قليلة   وأكثرها دون النجاح كليل

***

وتكاد تكون مدينة « درنة » بمناظرها الجميلة الفاتنة ملهما لكثير من الشعراء والأدباء الذين قدموا للأدب العربى فصولا أدبية قيمة وقصائد شعرية خالدة ، فهاهوذا شاعرها الأول السيد « إبراهيم أسطه عمر » يعبر لنا عن شعور بلده نحو سمو الأمير السنوسى :

إلى الأمير فدته النفس أهديها   مقالة كنت قبل اليوم أخفيها
لكننى لم أجد ظرفاً يلائمها   غير الذى نحن فيه قد يواتيها
مقالة ملؤها الإخلاص أرفعها   لقائد الشعب، قلب الشعب يمليها
آن الأوان فما التأجيل يغنمنا   لنعلن الحق إقراراً وتنبيها
وحقنا وحدة القطرين نتبعها   حرية أنت معناها وراعيها

وفي « برقه » خلا هذين الشاعرين الشابين كثيرون وإنما لم يصلنا شيء من آثارهم المديدة ، منهم الشاب « أحمد فؤاد شنيب » وهو شاعر صغير السن عاش في دمشق وعاد أخيراً إلى وطنه الأم ليبدأ نضالا أدبيا جديداً في بلاده العزيزة . ومن لطيف قوله وهو في دمشق يصف ليلة المولد :

مالي أراك كدرة تتلالا شمت فأكسبها البهاء جلالا
وكسوت هذا الكون أسنى شعلة سطعت فألهب نورها الأجيالا

وللنثر مكانه المرموق في برقة والمحاضرات الأسبوعية تحفل بأروع الكلمات الأدبية والاجتماعية والسياسية ونحوها يلقيها شبان توفر على درس الأدب واللغة العربية وأسرارها وتلك هي قطعة نثرية لأديب درنة « فرج بن جليل » يتحدث فيها عن وحي الهجرة :

« في سجل الخلود ساعات فاصلة ولحظات حاسمة إذا انحرف فيها ميزان القدر يمنة أو يسرة تبعته نتائج كبيرة خالدة وآثار عظيمة باقية تجر وراءها الخير الكثير أو الشر المستطير وتبث في الدنيا ضياء باهراً أو انتشر ظلاماً دامساً . ومن أخطر تلك اللحظات وأعظم تلك الساعات تلك التي هاجر فيها محمد بن عبد الله ، تلك اللحظة الخالدة في تاريخ الإسلام ذات الفضل الأكبر في تغيير مجرى تاريخ البشرية . »

وهذه قطعة أخرى لأديب شاب من شباب طرابلس الغرب يصور لنا كيف راقب الهلال وصحبه ليلة العيد :

كنا بربوة جماعة نترقب ظهور الهلال ، وكانت أنظارنا معلقة بالسماء تجوب بها في أجوائها باحثين منقبين في صفحاتها نريد بصيصاً من نور يكون حجة لنا بالعيد ، وبعد لأي من زمن طال فيه اتجاهنا إلى السماء إذا بخط وضاء لانكاد تدركه الأبصار يتجلى في كبدها ، أشار بعضنا إلى أنه الهلال ... الخ ...

* * *

تلك هي ياقارئي نماذج صادقة شعرية ونثرية من أدب طرابلس الغرب، ولعلك أدركت أنه لم يصل بعد إلى درجات الكمال والسمو

يقظـــة ...

[مهداة إلى الصديق الكريم الأستاذ محمد العلائي]

شاب الظلام وفارقته الأنجم والأفق عن إصباحه يتبسم
وتحدث الزهر الضحوك مبيناً معنى السرور وإن يكن لا يفهم
فاعجب لشارح قصة هو جاهل أسبابها ، ولعالم لا يعلم
وقد اشرأب النخل يزهى جيده بقلائد مرجانها يتضرم
مرحاً تداعبه الصبا فترى له رقصاً عن المرح الرزين يترجم
تافرح بأعياد الطبيعة إنها متجددات ، كل صبح موسم

وإذا تجهمت الحياة هنيهة فاصبر ، فوجه الحزن فيه تجهم
كم نعمة لبست ثياب رزية حتى تداعب من بها يتبرم
فإذا التجهم بسمة ، وإذا الشقا (م) ء سعادة ، وإذا الرزايا أنعم
أو ما ترى الدخلاء في أوطاننا قد أيقظوا الأفكار رغماً عنهم
كم أبرموا أمر الجلاء وقرروا فإذا غدوا نقضوا الذي قد أبرموا
فأفادنا التسويف عزماً لا يني عما نروم ، وهمة لا تحجم
هم أقوياء بالعتاد حقيقة لكننا بالحق أقوى منهم

(الزقازيق) توفيق عوضي

شأنه في البلاد العربية الأخرى ، ولكن الأمل العظيم أن يشمر الأدباء اللوبيون عن ساعد الجد فيبعثوا لأدبهم ماضيه القديم وتغدو مؤلفاتهم الأدبية وكتبهم العلمية في صدارة مكتبات البلاد العربية فإن عهد الخمول وكبت الملكات وخنق الحريات قد زال بخلاص هذه البلاد من جور الإيطاليين وظلمهم وأصبح الطريق ممهداً أمام الأدباء ليعززوا أدبهم ويجددوا للغة العربية منزلتها في بلادهم . وليس هذا ببعيد إن شاء الله

صلاح الدين بن موسى

حول مهرجان جامعة أدباء العروبة بالفيوم :

فى موكب الشـــعر

للاستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

قرأت هذه القصائد الثلاث التى أنشدها الأساتذة الغزالى وطاهر والعوضى فى مهرجان أدباء العروبة بالفيوم والتى نشرتها « الرسالة » فوجدت فيها من قبس الفن، وروح الشاعرية ، واختلاف المواهب الفنية فى الشعر ، ومن طريقة كل شاعر فى التصوير ، وأسلوبه فى البيان ، ما يستحق النقد والدراسة .

شعراؤنا الثلاثة متشابهون فى الثقافة ، متقاربون فى النزعات ؛ ربطتهم صلاتُ الصداقة والأدب والدراسة فى مدرسة واحدة ، والحياة فى ميدان واحد ، أو كالواحد ، بروابط قوية متينة ؛ ولكنهم مع ذلك يختلفون فى نزعاتهم الفنية اختلافاً كبيراً .

فالغزالى شاعر وصاحب فن فى شعره ؛ وطاهر شاعر يعلن بشعره الثورة على الحياة ؛ والعوضى شاعر صناع يحفل شعره بالصنعة الهادئة الجميلة ؛ وهذه النزعات الفنية المتفاوتة تكاد تلمسها فى هذه القصائد الثلاث كما تقرؤها فى ملامح وجوههم وألوان حياتهم

طوى «الغزالى» الصحارى فى سفره لرياض الفيوم الساحرة بعد ما هزّه الشوق لزيارتها ، وصوّر ذلك كلّه فى مطلع قصيدته الرائع :

من لسارٍ إليكِ يطوى الصحارى
هزّه الشوقُ أن يزور فزارا

ثم يصور عواطفه وإجهاده وقلقه وسهده قبل سفره وتطلعه إلى الفيوم لتزيل عنه أثر كل هذا العناء فى تصوير جميل أخاذ فاتن :

عابراً كالطيوف ولهانَ كالأنسام
هيمان كالأمانى الحيارى
مُجْهَداً علّ فى ظلالكِ مأوى
قلقاً علّ فى رُباكِ قرارا

وبمّ كان هذا الأجهاد والقلق والشقاء ؟ لقد فارق الشاعر محبوبه و « رفيق صباه » فعاش عيشة البائس الشقى المحروم من أجمل ما فى الحياة :

يا جنان الفيوم نازحُ أيكٍ ... بانَ عن عشه إليك وطارا
قد خلا العش من رفيق صباه ... فمتى تألف القطاةُ الهزارا
نسلتْ ريشه الليالى طوالا ... أترى تصبحُ الليالى قصارا ؟

ويستمر الشاعر يصور آلامه وآماله وعواطفه فى حبّه ؛ متمنياً أن يكون له فى رياض الفيوم سلوى ، شاكياً إلى عذارى الرياض ما يلقاه من أترابهنّ العذارى :

أتراه هنا سيمسى قريراً ... فى رياض الفيوم طابت جوارا
ياعذارى الرياض من كل شاد ... أنا أشكو إلى العذارى العذارى
أنا أشدو لها جراحى شعراً ... فمساها نُضَمِّد الأشعارا

ثم تذكره بحيرة قارون فى دجى الليل بمحبوبه ، فيشدو ويصدح مؤكداً وفاءه لعهد الأحباب :

يا أحبّاى والديار تناءت ... كيف أنسى أحبتى والديارا
لست أنسى ملاعبى والضفاف (م) الخضر تجرى من تحتهن نضارا
لست أنسى بها مواثيق عشنا ... نتحدى بصدقها الأقدارا
لست أنسى ولا إخالك تنسين ... فحتى متى نطيق انتظارا

* * *

أما « طاهر » فقد شاهد قافلة الشعر تسير إلى الفيوم وفيها الأدباء والشعراء والوزير الضخم فعنى بتصوير هذا الموكب وجماله أكثر من أى شىء ، إنه لموكب رائع للبيان وكما يقول :

موكب للبيان فيه اللواء ... يفزعُ الدهرَ وخدُه والحُداء
ضاربٌ فى صحرائها يسبق الركب
جلالٌ من هديه ورُواء
مثلما يسبق الشعاعُ إذا ما ... أعلن الصبحَ للوجود ذُكاء

والشاعر لا ينسى نفسه فى هذا الموكب ، وكيف ينسى وهو الذى « فى محرابه يُعبد الفن وتستهوى ضوءه الأضواء » ؟

لو تحس البيداء من سار فيها ... لتغنّت من شجوها البيداء
شاعر فى محرابه يُعبد الفنّ ... وتستهوى ضوءه الأضواء
ذو بيان لو عاقرته الندامى ... لتناهت عن شربها الندماء
وهتوف يكاد يشرق فى ألحـانه الخير والمنى والرجاء

ثم يعلي شأن الفن في الحياة ويثور على العلم الذي أصبح المعول الهدّام في صرح الحضارة :

ومن الشعر ما يملك الحق إذا موّه الوجـود الرياء
ربما استغنت الحياة عن العلم على رغم ما أتى العلماء
وعلى الفن وحده عاش أجـدادك دهراً وهم به سعداء

ثم يعود إلى قافلة الشعر وموكب الشعراء ومن فيه من « الأبدال والأدباء » و « الوزير الضخم » ، حتى يحط رحاله في رياض الفيوم :

وإذا نحن في رياض من الشعر لها رونق وفيها صفاء

ثم يشيد برحم الفن وصلات الأدب التي جمعت بين أدباء الجامعة وبين أدباء الفيوم :

صلة وثّق البيان عراها ونماها فكلنا أقرباء
جمع الشعر بيننا في صعيد ومن الشعر منسب وإخاء

***

أما « العوضي » فقد وصف ذكرياته في الليالي البعيدة مع أحبائه ، وأثر هذه الذكريات في قلبه ، ثم وصف روضات الفيوم وجمالها ، و « الأخوان الكرام » الذين استقبلوه هو وصحبه فيها ، وصلات الأدب والعروبة التي تجمع بين الأدباء والشعراء ، يقول :

حدا الركبَ حاديه فأين مكانيا أبين من الأشواق ما كان خافيا
على شفتي من خمرة الحب نشوة تلهّبَ ترنيمي بها وغنائيا
لنا ذكريات في الليالي بعيدة ألا من يعيد اليوم تلك اللياليا

ثم يستمر في شدوه الهادئ ، وتصويره المصنوع ، فيصف الفيوم وفتنتها :

سقى الله في الفيوم روضات فتنة ونفر فيها أربعاً ومغانيا
فراديس منضورٌ بها الظل والجنى
تألّقُ نوّاراً وتسحر شاديا

وإخوانه الكرام فيها الذين سقوه صافي الود :

لجئنا لأخوان كرام وصحبة سقونا من الودّ المطهر صافيا

ويشيد بصلة العروبة التي جمعت بين الجميع وبذلك ينتهي من قصيدته :

هذه هي الأغراض العامة لكل شاعر في قصيدته ، وهي تجمع بين العواطف الوجدانية والوصف الفني ، وكنا نودُّ أن تكون قصائد هؤلاء الشعراء أوسع نطاقاً من هذا الأفق المحدود ؛ ما ضرهم لو كانت قصائدهم في القرية والحياة فيها أو في النيل وأثره في وحدة الوادي ، أو في العلم وآثاره على الحضارة في عصر الذرة ، أو في شتى الأغراض القومية والأنسانية العليا ؟ ولكنهم آثروا تلك السبيل الفنية وحدها فلم يشعروا إلا فيها وفيما يتصل بها من العواطف الوجدانية ، وإن كان « طاهر » قد خرج قليلا عن هذا المجال فأشاد بالفن وأعلن الثورة على العلم والعلماء :

إنّ من أطلقوا العقول علينا لست تدري: أأحسنوا أم أساءوا
ربما استغنت الحياة عن العلم على رغم ما أتى العلماء

أما من حيث الأسلوب : فالغزالي يشعر ويسحر ويبلغ في التصوير منزلة كبيرة ، نجد ظلا لها في كثير من أبياته كما يقول عن نفسه :

عابراً كالطيوف ولهان كالأنـ سام هيمان كالأماني الحيارى

وقوله يعبر عن نفسه أيضاً :

يعبر الليل في خداع الأماني وتمنّى آصاله الأسحارا

وقوله :

والشوادي من حولنا مرهفاتٌ سمعها تستبينُنا الأسرارا

وقوله :

لست أنسى بها مواثيق عشنا نتحدّى بصدقها الأقدارا

وسوى ذلك من قصيدته التي تمتاز بما فيها من « عيون » كما يقول النقاد ؛ ولكنه على رغم ذلك يخطئ سبيل الفن أحياناً . فبيته :

يا عذارى الرياض من كل شاد
أنا أشكو إلى العذارى العذارى

يقصد فيه العذارى حقاً ؛ فوصفهن بالسحر والفتنة ورقة العاطفة أولى من وصفهن بالشدو ، بل وصفهم بالشدو يكاد يكون لا معنى لتخصصهن به من بين سائر الأوصاف . ولو قال « من كل أحوى » ، مثلا لكان أولى ؛ وتضميد الأشعار في بيته :

أنا أشدو لها جراحي شعرا فمساها تضمّدُ الأشعارا

لا معنى له ، فما ألفنا في القول بأن الأشعار تمثل جراحاً بل هي استعارة نافرة عن سمع العربي وذوقه . والبيت :

والتي قد تخذتُها بحداقي خصل أرسلتْ عليَّ نثارا

لم أفهمه فوق ما فيه من « تشميث » قافيته ، وهذه المنات

الأدب والفن في أسبوع

محو الخلافات المذهبية توثيق لعرى الوحدة الإسلامية :

تألفت في مصر لجنة من كبار رجال الفكر وعلماء الفقه والمعنيين بالدراسات الإسلامية هدفها رفع الخلافات المذهبية بين المسلمين وتمحيص المسائل التي هي مثار هذه الخلافات في ضوء البحث الحر والتغاضي عن النزعات التي تدعو إلى التعصب في الفروع والمسائل الشكلية .

وهذا في الواقع عمل جليل ، فأن هذه الخلافات التافهة كانت شرما منيت به الوحدة الإسلامية ، وكانت عامل التفرقة بين صفوف المسلمين ، حتى شتتت شملهم وصدعت بنيانهم الأصيل ، فلم يقو على رد المستعمر الدخيل .

لم تكن هذه الخلافات في شيء من أصول الدين الواضحة ، ولكنها كانت من صنع السياسة وأصحاب الأغراض والمآرب في الملك والحكم يوم كان الدين هو الأساس في الملك والحكم ، فأخذ هؤلاء يؤلفون العصبيات ويخلقون الجماعات ، بما يختلقون من الأخبار والآثار ، وبما يعملون في إثارة النفوس وتأريث المداوات ، وزاد في البلاء بهذا صنيع الجهلة من الفقهاء الذين كانوا يستجيبون لأهل السلطان وطلاب الحكم بما يقوى نعراتهم ويتمشى مع أهوائهم . ومن العجيب أن الأيام تطورت ، والأحداث تواترت ، وفتح على المسلمين من أبواب البلاء والعناء ما بصرهم بعاقبة الوبال في تلك الخلافات التي فرقت الصفوف ، وباعدت بين القلوب ، ولكنهم لم يتبصروا الحالم ، ولم يدبروا لشأنهم، ولم يسارعوا إلى إنقاذ أنفسهم من أنفسهم ، حتى يمكنهم أن ينقذوا أنفسهم من غيرهم ! !

وكثيراً ما أشفق عقلاء المسلمين من هذه الحال الأليمة ، وكثيراً ما أهاب المصلحون والغُيُر على الأسلام والوحدة الأسلامية بالمسلمين أن يتلافوا تلك الصغائر ، وأن يوحدوا بين اتجاهم في الرأي لتتم لهم الوحدة في الغاية والهدف بأزاء الاستعمار الأجنبي وتغلغل الدول الأوروبية في بلادهم ، وقد كان السيد

لا تغض من القصيدة ومكانتها الأدبية .

أما « طاهر » فمستوى الشاعرية في أسلوبه ، ولكنه في ثورته الفنية التي يستمدها من روحه الثائرة ، يبعد أحياناً عن الإجادة ، كما تراه في قوله :

الطريقَ الطريق : قافلةُ الشعر وركب الوزير والوزراء

وفي قوله يتحدث عن حلمهم برياض الفيوم :

طرق الشعر بابها ، فإذا شعر يقول : ادخلوا وطاب الثواء

وذلك سبيله في فنه ، يثور حتى على سبل الفن الواضحة المألوفة.

و « العوضي » أظهر استواء في شاعريته لأن أسلوبه أسلوب مصنوع تأنّق الشاعرُ في صوغه كما أراد ، وهوفيه هادىء واضح، من حيث كان « طاهر » مفكراً ثائراً ، والغزالي فناناً شاعراً .

وفي قصيدة « طاهر » روح الحارث ومعلقتــه :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

بل هو يستعير بعض أبياتها :

أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

كما يستعير بعض ألفاظها وقوافيها ، ولكنه مع ذلك ذو شخصية قوية مستقلة في قصيدته .

والغزالي يشترك في بعض معانيه مع بعض الشعراء ؛ فبيته :

نسلتْ ريشه الليالي طوالا أترى تصبح الليالي قصارا ؟

شبيه بقول ابن أبي ربيعة في المعنى والوزن والقافية من قصيدة طويلة :

والليالي إذا نأيتِ طوالٌ وأراها إذا دنوتِ قصارا

ولكن قوله « نسلت ريشه الليالي » زيادة بليغة ليس لها نظير في بيت عمر .

أما العوضي فتكاد قصيدته تشبه قصيدة جرير — في الفن والروح :

ألا أيها الوادي الذي ضمَّ سيله إلينا نوى ظمياء حُيِّيتَ واديا

إذا ما أراد الحي أن يتفرقوا وحنَّت جمال الحيِّ حنَّت جماليا

وإن كانت تختلف عنها في كثير من الأوصاف الفنية .

هذا ما أردت أن أذكره من نقد أدبي لهذه القصائد الثلاث لشعراء لهم من بين شعرائنا الشبان مكانة ممتازة ومجد أدبي نرجو أن يعملوا له ليكون لذلك أثره في مستقبل القريض وبالله التوفيق .

محمد عبد المنعم خفاجي
أستاذ في الأدب والبلاغة

جمال الدين الأفغاني رضوان الله عليه — وهو شريف النسب يمتد بنسبه كثيراً — أول من ندد بهذه الحال ، وسخر من المسلمين لأصرارهم عليها ، وهزىء بأولئك الذين يتخذونها مجالا للكلام ، ومن كلماته المأثورة فى ذلك : « لا يصح بحال أن نجسم أمر هذه الفروق فى الفروع ونجعلها واسطة للتفرقة والنزاع فالخصام والاقتتال ، وإذا سلمنا أن وجود تلك الأمور التى مهل وجودها جهل الأمة وسفه الملوك الطامعين فى توسيع ممالكهم — كان مفيداً فى الزمن الماضى ، أو يرجى من ورائه إحقاق حق وإزهاق باطل ، فأن بقاء هذه النعرة إلى اليوم ليس فيه إلا محض الضرر ، وتفكيك عرى الوحدة الأسلامية ، وقد آن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة ، ومن هذا الموت قبل الموت .. » .

هذه الصيحة التى هتف بها السيد جمال الدين الأفغانى منذ أكثر من ستين عاماً كثيراً ما تداولتها الألسن ، وتناولتها الأقلام ، وهتف بها المشفقون على الوحدة الأسلامية والداعون لجمع كلمة المسلمين ، حتى اقتنع السواد الأعظم بضرورة تحقيقها ووجوب العمل على تنفيذها . وإنى لأذكر أنه لما عقد المؤتمر الأسلامى فى القدس عام ١٩٣١ تقدم فضيلة السيد آل كاشف الغطاء وأم وفود المسلمين للصلاة فى المسجد ، فطرب المسلمون فى سائر أنحاء الأرض لهذا النبأ ورأوه بشير خير ، وتمنوا أن تكون هذه بداية للقضاء على الفروق المذهبية القائمة . وقد كان من الطبيعى أن يفزع الاستعماريون لهذا ، وأن يتساءلوا عن الخطوة التى تكون بعده ، ولذلك أخذت الصحف الأجنبية يومذاك تعلق على هذا النبأ بمختلف التأويلات ، والتهويلات ، وقالت إحداها وهى بسبيل تحذير الاستعمار الأوربى : يظهر أن المسلمين بدأوا يجمعون كلمتهم للقيام بحرب مقدسة ضد الغرب من أجل إبقاء فلسطين .

وفى مقام الأنصاف نذكر أن المغفور له الشيخ المراغى طالما ردد الدعوة إلى هذا الغرض ، ونادى جهاراً للعمل على تلافى تلك الخلافات التى لا مبرر لها ، والتى تؤدى إلى الأضرار بالمسلمين بقدر ما تفيد الاستعمار والمستعمرين .

ولعل القراء يذكرون أن « الرسالة » كثيراً ما أهابت بهذا فى كل فرصة سانحة ومناسبة داعية ، وكثيراً ما باركت أصوات الدعاة لهذا العمل ، والحداة للركب أن يسير ، ثم كثيراً ما تعجبت للمسلمين أن تظل بينهم هذه الخلافات قائمة وهم الذين يتوجهون جميعاً إلى قبلة واحدة ، ويأخذون بكتاب واحد هو القرآن ويسيرون بهدى نبى واحد هو محمد صلوات الله عليه ، فاذا ما تألفت اليوم لجنة من أكابر الفضلاء والعقلاء للعمل على محو هذه الخلافات وتمحيص الآراء فى دائرة الفكر الحر ، فأن مما يطرب الرسالة أن تبارك هذا العمل وأن ترجو التوفيق فيه ، كما يطربها ويسرها أن تسهم فى ذلك ، وأن تفسح فى صفحاتها لما يكون من تمحيص فكرة ، أو تصحيح رأى ، أو تحقيق مسألة ، أو إذاعة دعوة فى هذا السبيل .

كان ... ثم انقضى !

إلى عهد أدركناه كان المولد النبوى الشريف موسماً للأدب والشعر والفن والغناء ، وكان فى هذا مجلى العبقريات الكبيرة ، والأصوات الرخيمة ، والمواكب الضخمة الحافلة بكل لون ، وكانت مصر تحتفى على هذا ثمانية أيام ، وكأنها فى فرح شامل عام وكأن بالناس قد ابتدعوا بدعة الحلوى فى المولد النبوى حتى يتخففوا من الطعام الثقيل ليفرغوا إلى ما ينشدون فى مباهج المولد من متع الفن ومجاليه ...

كان المولد النبوى موسماً للسهرات العظيمة الممتعة يقيمها الأثرياء والوجهاء من أرباب البيوتات الكبيرة العريقة، ويستقدمون لإحيائها عباقرة المغنين وأهل الفن من أمثال عبده الحمولى ويوسف المنيلاوى وأحمد ندا وعبد الحى ومحمد عثمان وغيرهم : ويفتحون أبوابها لرواد الحظوظ والسماع من سائر الطبقات ، ويمدون فى أسبابها إلى نفوس الفقراء بنحر الذبائح وإطعام الطعام ...

وكان المولد النبوى موسماً لأقامة الحضرات الشجية الفخمة ، يقيمها أبناء الطريق على شروطهم ، ويحييها كبار المنشدين على ذوقهم ، ويقبل عليها الناس من كل لون ، يستمتعون لرائع التواشيح ورائق الفن ..

وكان المولد النبوى ذكرى تهز عواطف الشعراء ، وتملأ وجداناتهم ، وتسمو بنفوسهم وأرواحهم ، فتجيش شاعريتهم بأقوى القصيد وبارع النشيد ، ويهل « شوق » على العالم

الإسلامي ليهز عواطفه بقوله : وُلد الهدى فالكائنات ضياء . »

وأخيراً كان المولد النبوي صلة بين الحاكمين والمحكومين ، فكان الشعب والحكومة يلتقيان في ساحه ، ويتقابلان في أحيائه ، ويتقاربان في ذلك على المحبة والألفة والتخلص من الأوضاع الرسمية والبرامج الأميرية ، ولهذا كان الشعب يشعر دائماً بأنه قريب من نفوس الحاكمين ...

كان هذا كله.. وكان المولد النبوي يأتي كل عام بجديد في هذا كله أما اليوم فقد انقضى هذا كله ، وأصبح الشعب بسائر طوائفه وطبقاته لا يحس بهذا المولد إلا على وضع رسمي آلي ، فالموظف لا يعنيه منه إلا أنه يوم راحة من عناء الديوان ، والتاجر لا يحفل فيه إلا ببيع لعب الحلوى للأطفال ، وطوائف الشعب لا تستقبله إلا على أنه عادة خلفتها الأيام ، أما أبناء الذوات والبيوتات فلم يعد هذا الموسم منهم على بال ، وهيهات أن يبلغ في تقديرهم مبلغ سهرة من سهرات (بديعة) . وأما أرباب الشعر والفن فأنهم يعتقدون أن المناسبة فيه مناسبة قديمة عتيقة . وهكذا مضى المولد النبوي هذا العام ، وكل ما بدا من مظاهره : حفلات أقامتها بعض الهيئات وكأنها الرسوم المحيلة ، وكلمات ألقاها بعض الوعاظ والخطباء وهي لا تعدو الألفاظ والتعابير التي تموت على الشفاه . . . فما الذي عدا مما بدا ؟ أهي طبيعة العصر ووجهته ، أم ظروف العيش وقسوته ، أم هو صنيع الآلة بنا حتى أصبحنا لا نحس الحياة في أجلى مظاهرها إلا على وضع آلي ؟!...

شاعر يتحدث عن الشعر :

ألقى الأستاذ عمر أبو ريشه الشاعر المعروف في «النادي العربي» بدمشق حديثاً عن الشعر وما ينشد من المثل الأعلى في الحياة قال فيه :

« .. كم شعرت برعشة وأنا أقرأ بعض الشعر ! وكم حاولت أن أتبين المواطن التي أثارت عندي هذه الرعشة فكنت أبوء بالخيبة »

« أنا في كل يوم أحب وأكره ، وأومن وأكفر ، فلا أقيم على رأي ، ولا أستقر على اتجاه .. قرأت منذ أمد بعيد الملاحم في الشعر ، فأسكرتني روعتها ، وهزتني حيويتها ، حتى إذا كدت أحسبها ما ينتهي إليه طموح شاعر ، سمعتني أتمتم بيني وبين نفسي : ما لي ولهذا الشعر الذي ترضعه الخرافة ، ويربيه المجهول ، ليصبح تسبيحاً للماضي السحيق الموهوم ؟ ومرت الأيام ، وإذا أنا في إحدى المشيات ، وبعد أن شيعت صديقاً عزيزاً على إلى مقره الأخير أمد يدي إلى « الألياذة » مندفعاً برغبة ملحة إلى قراءة دموع « أخيل » على جثمان صديقه « بتروكلس » ، تلك الدموع التي قرأها قبلي الشاعر « بيرون » ، فشعرت بميل خفي نحو « هومير » ، فرجعت إليه وقرأته مرة ثانية في نشوة وطرب وأصبحت أجد في الملاحم متعة للنفس المثقلة بأسرار الحياة وبأعبائها ، فاذا كانت غاية الشعر كما تقول بعض الآراء أن يرفه عن النفس ، ويخرجها من أفقها الضيق ، وينسيها ما يحيط بها من متاعب الدنيا ولو إلى حين ، فلما ذا أربأ بالشعر أن يكون مشحوناً بالخرافات والأوهام ؟ » .

« وقد قرأت الشيء الكثير من القصائد والمقطوعات الشرقية والغربية حتى إذا ارتويت ، أو ظننت أني ارتويت ، سمعتني مرة أتمتم بيني وبين نفسي : ما لي ولهذا الشعر الذي يخنق الروح الحساسة المرهفة ، ثم ينثرها أشلاء مشوهة بألفاظه وتعابيره .. إن الحياة والطبيعة ينبوع الشعر ، وهو ما تميه الروح قبل أن يعيه السمع والأدراك ، وليس إلى هذا الشعر الذي يروي ظمأ الروح من سبيل ؟.. » .

« إذن ما هو مثلي الأعلى في الشعر ؟ أأريد من الشعر أن أشم فيه روائح الحياة ، وأسمع منه أنفاسها ، وأتذوق به نكهاتها ؟ أم أريد من الشعر أن يغيبني في هذه الحياة حتى لا أعود أشعر بكياني الذاتي ؟ لا أدري ماذا أريد !!.. » .

« إلى هذه الدرجة انتهى بي القنوط من فهم الشعر فهماً منطقياً ، فعجيب إذن أني ما أزال أكتب الشعر ! وأعجب من هذا كله أنني أحدثكم هنا عن كيف أكتب الشعر ! والواقع أني إذا تركت جانباً الموازين المنطقية التي نزن بها قيم الشعر ، والتي أراها لا تشفي غلة ولا تبلغ غاية لأن الأحساس بالجمال — كما أرى — مصدره العاطفة والذوق لا العقل والعلم ، أقول إني إذا تركت تلك الموازين جانباً ، والتفت إلى الشعر الذي أكتبه ، وجدتني فيه شاعر قصيدة لا شاعر بيت ومقطع ، والقصيدة عندي فكرة معينة ينطوي تحت أجنحتها الثلاثة : الخيال ، واللون ، والنغم »

هذا ما تحدث به الشاعر « عمر أبو ريشة » عن الشعر ، وإنه فى حديثه لشاعر أيضاً يفهم الشعر بعاطفته وذوقه ، ويعترف بعجزه عن أن يجد فى ذلك سبيلا للموازين المنطقية ، ومقتضيات العقل والعلم، وهذه الحقيقة هى التى عناها رجل المنطق «سقراط» منذ آلاف السنين إذ قال : لقد وجدت جميع الناس يفهمون الشعر أكثر مما يفهمه الشعراء أنفسهم .. » .

والخلاف القائم بين الشعراء والنقاد يبتدىء من هنا ، فالشعراء يقولون إن الشعر مجرد عاطفة وذوق وينتهون عند هذا ، والنقاد يقولون إن الشعر منطق وفهم ويتشبثون بهذا ، وقد آن لنا أن نفهم أن الشعر هو الجانبان معاً . وعجيب من الشاعر أبى ريشة أن يقول : « إن ينبوع الشعر هو الحياة والطبيعة » ، ثم ينتهى بعد ذلك إلى إنكار الموازين المنطقية فى فهم الشعر ، وهل « الحياة والطبيعة » عاطفة وذوق فقط ، أو هما عقل ومنطق فقط ؟.. كلا ! ولكنهما كل ما فى الإنسان ..

مات إلياس أبو شبكة :

هتف الناعى من بيروت منذ أيام بموت الأديب الشاعر إلياس أبو شبكة ، فمز نعيه على أصدقائه وعارفى فضله ، وهز فقده وجدان أبناء العروبة القادرين لفضله .

مات إلياس ابو شبكة وهو فى عنفوان الحياة ، إذ كان فى حدود الخامسة والأربعين ، وكان أوفى مايكون نشاطاً وإنتاجاً ، وكانت آثار قلمه البليغ ، وفنه الرفيع تتناثر على أبناء العروبة كأنها قطرات الطل على أوراق الزهر . وهكذا تحطمت « القيثارة » فجأة وهى لما تزل مشدودة الأوتار ، تردد أعذب الألحان وأطيب الأناشيد .

نشأ إلياس رحمة الله عليه فتى يتيما ، فقد فتكت يد أثيمة بوالده فى مطارح الغربة بعيداً عن زوجه وصغاره ، فكانت فاجعة قاسية أفعمت نفس الفتى بالألم ، وأرهفت قلبه بالأسى والشجن ، ثم كانت الحرب العالمية الأولى وآثارها فى لبنان موطن الشاعر .. أرض لا يعمرها « إلا أشلاء الجائعين ، ونسمات لا تحمل إلا عبق البارود وأبخرة الدماء والدموع ، وأطيار ماتت فى الحقول على الأغصان المتكسرة والأوراق اليابسة الصفراء ، وليس من حداء الحياة إلا أنين المتألمين وحشرجة البائسين » ، ومن هذا كله تغذت نفس إلياس ، وعلى هذا كله تفتحت شاعريته ، فنبت كالزنبقة البيضاء على قمم لبنان وفى أحضان أغواره يتموج بالنشيد ، ويهتف بالقصيد ..

وصف فقيد الأدب « فيلكس فارس » شاعريته وهى تتماثل للتمام عام ١٩٢٥ فقال : « لقد قرأت شعر إلياس أبى شبكة قبل أن أعرفه ، فجزعت نفسى عليه من نفسه .. سمعته ينطق بأرق مافى القلب من الحب ، وبأرق مافى الحب من الوحدة والأخلاص ، فقلت إنه قلب معد للسحق ، مهيأ لأن يذبح على مذبح غواية الغانيات فى زمان وفى وطن تتمرد فيه المرأة على كل شىء لتمد عنقها صاغرة أمام آلهة التقليد والبذخ والمطامع .. » .

« ورأيته يتراى متهالكا على المغاور المظلمة وقد رفع بيمناه قبس النور ، ونبضات قلبه تتدفق بآيات الحكمة من فمه ، فارتمضت نفسى أمام هذا الشاب المتلاعب بالحياة والموت ، وقلت إن مغاور الظلمة ستبتلعه ، وإن قبس النور سيحرق يمناه .. » .

« وشاهدته يتهدد سلطات النفوذ والجهل والمال ، ويصرخ بالأمة داعياً إلى النهضة والحياة ، وسمعت فى شعره أجمل ما يقول شاعر لنصرة الحق على الباطل ، فأمسكت على قلبي وسترت عينى بيدى حتى لا أرى ضحية جديدة وشهيداً جديداً .. » .

« ثم رأيت إلياس أبى شبكة بعد أن رأته ، فعاينت شعره فيه ، كما عاينته فى شعره .. إن فى لفتاته لمعات ليست من هذه البلاد ولا من هذا الزمان ، لقد انتقم جسده من روحه قبل أن تنتقم السلطات منه ، ويبتسم الشعب المستعبد لأقواله .. » .

ذلك هو إلياس أبو شبكه الذى فقده الأدب والشعر ، وتلك هى شاعريته التى خسرها الفن والحق ، نمت واكتملت ، وظهر من آثارها الخالدة ما أكبره أبناء العروبة وقدروه حق قدره . على أنه إلى جانب الشعر كان كاتباً له أسلوبه المشرق ، وتعبيره الونق ، وفنه المتدفق ، فلا شك أن كان فقده نكبة للأدب وخسارة على العربية .

مبشر ثقافى أم سياسى :

لقينى صديق كريم من أبناء سوريا فحدثنى عما نشرته « الرسالة » عن رحلة الأديب الفرنسى الكبير الأستاذ جورج

دبهاميل إلى بلاد الشرق العربية قال : « لقد قرأت ما كتبتموه فى عددين سابقين عن هذه الرحلة التى يقوم بها مسيو « جورج دبهاميل » الآن ، ووصوله إلى مصر لألقاء بعض الأحاديث والمحاضرات ، وقد أعجبنى أن فطنتم للغرض من هذه الأحاديث والمحاضرات إذا قلتم أنه يقصد بهذا إلى الدعاية للثقافة الفرنسية ، وأحب أن أقول لحضرتكم ولقراء الرسالة الكرام ، إن دبهاميل قدم إلى أقطار الشرق العربى وفى برنامجه الرسمى الموضوع أن يرى بعينيه ما يريد العرب والمسلمون ، وأن يستمع بأذنيه إلى ما عندهم من الآراء فيما يقصدون ويهدفون ، وعليه فى ضوء ما يرى وما يسمع ، أن يذكر بما أدته الحضارة الغربية عامة ، والفرنسية خاصة إلى العرب والمسلمين وإلى التراث الأسلامى ، وأن يوجه أنظار الذين يقابلهم ويتحدث إليهم إلى أن مطامحهم لا يمكن أن تتحقق إلا بتمام الاتفاق والحرص على الاتصال بالحضارة الغربية ، أو بمعنى أخص وأجلى بالحضارة الفرنسية .. فهو فى الواقع مبشر سياسى يصبغ فكرته بصبغة الثقافة ، ولعل دبهاميل يقتنع فى نهاية الأمر بأن الشرق قد أصبح على بينة من أمره ، وأنه صار يدرك تمام الأدراك أن نفوذ الثقافة لا حد له ، ولا وطن له ، ولكن نفوذ السياسة يجب أن يكون محدوداً بالحدود الطبيعية ، محصوراً بالدعائم القومية ، وعلى هذا الأساس الذى هو ضمان السلام فى الأرض يريد الشرق أن يصفى حسابه مع الغرب » .

شيء مضحك ؟ ؟

نشرت إحدى الصحف اليومية برقيه لمراسلها الخاص يقول فيها : « إن أنباء تونس تدل على أن فى هذه البلاد نهضة كبيرة فى ميدان الأدب العربى بصفة خاصة ، والعلوم بصفة عامة ، ومن الأدلة على ذلك أن مسرحية هامة بعنوان « هرون الرشيد » ستمثل قريباً برعاية جمعية النهضة التمثيلية ، وستتبعها رواية « فتح العرب لصقلية » بأشراف جمعية الاتحاد المسرحى ، كما مثلت رواية « مجنون ليلى » من قبل على مسرح المدينة الرئيسى ، ورواية « طارق بن زياد » ثلاث مرات » .

ثم تقول البرقية : « ومن النواحى الأخرى فى هذه النهضة زيادة عدد الصحف اليومية والأسبوعية ، فقد ظهرت جريدة « المرآة » وهى وطنية ، ومجلة الشعب التونسى — وهى تنطق بلسان نقابات العمال » .

وأخيراً تقول هذه البرقية « وقد ساهمت المرأة التونسية فى تثقيف بنات جنسها ، واشتركت كثيرات منهن فى إلقاء المحاضرات ، ومنهن الآنسة — ليلى حلوانى — التى تذيع رسائل بالراديو عن فائدة الرياضة للمرأة ، وتجمع الآن اكتتابات لإنشاء مدينة جامعية فى ضواحى تونس على مثال مشروع المدينة الجامعية فى مصر ، وما زالت التبرعات تتدفق على العاصمة لهذا الغرض ، وقد زادت حتى الآن على عدة ملايين من الفرنكات » .

قرأت هذه البرقية فضحكت ، وإنها لشيء يدعو إلى الضحك ، وإلى السخرية ، وإلى الإشفاق ! وهل ثمة أعجب وأغرب فى هذا العصر من أن يعتبر تمثيل رواية ، أو إنشاء مجلة ، أو إذاعة آنسة لحديث دلائل « نهضة كبيرة فى ميدان الأدب العربى بصفة خاصة والعلوم بصفة عامة » ! !

إن هذه الأمور التى تعددها البرقية وتشيد بها ليست إلا أموراً بدائية ينهض بها التلامذة فى مدارسهم . ففى أى مدرسة ثانوية يمثلون الروايات ، ويصدرون المجلات ، ويذيعون المحاضرات والمناظرات ، فكأن هذه « النهضة الكبيرة » فى تونس بعد هذا الدهر الطويل ليست إلا نهضة مدرسة ثانوية لا أكثر ولا أقل .

على أنك إذا علمت أن هذه البرقية إنما أذيعت من باريس ، وأنها دعاية استعمارية هدفها التمويه والتلبيس ، تبينت حقيقة الحال فى ذلك القطر الشقيق ، وأدركت أن هذا الذى يمن به الفرنسيون فى تلك البرقية قد كشف صنيعهم ، وأظهر للناس كيف أن الحياة الأدبية فى قطر عربى عتيد لا تزال عند ذلك الوضع البدائى التافه الذى لا يعدو مشاهدة رواية تمثيلية ، وذلك كله بفضل الاستعمار الفرنسى العريق العتيد ! !

لقد آن لفرنسا أن تعلم أن كل هذا العناء فى التمويه أصبح لا يجدى ولا يخفى حقيقة الحال فى تونس ، فإن أبناء العرب فى سائر الأقطار يدركون الحقيقة فيما تفرضه على الثقافة هناك من حجر ، وعلى حرية الرأى من حصر ، وعلى الإنتاج الفكرى من رقابة أشبه بالرقابة العرفية ..

« الجاحظ »

فن وتجارة :

أرسل إلينا الأستاذ يوسف وهبى بك فى آخر لحظة كلمة يرد بها على ما كتبه (الجاحظ) فى العدد الماضى تحت هذا العنوان فأجلنا نشرها مضطرين إلى العدد القادم .



ذكريات عشرين عاما فى مصحة حلوان

تأليف الدكتور عبد الرؤوف بك حسن مدير المصحة

عرض وتأمليه فى خطاب مودة وتقدير

للدكتور لويس دوس

أستاذى القديم وصديقى الكريم :

أهديت إلىّ مع الكتاب مودتك وتقديرك ، فإذا مودتك يثب إليها من مهجتى صنو يأتلف وإياها كأقوى ما يأتلف من الأرواح المجندة ، وإذا تقديرك فيما ينم عليه من تواضع العلماء الفضلاء ، يبتعث فى نفسى مالك فيها من كامن الشعور المتعاظم بالنظير . وإنى لأعكف على كتابك قارئاً ملتهماً فآتى عليه فى ساعة أو نحوها ، وإذا شاعريتك المتأججة الجياشة وراء علمك وطبك تهز مشاعرى ترجيعاً لمشاعرك ، وإذا ذكرياتك تهتاج فى نفسى مثيلات تتداعى لها فينشط قلمى ليجلوها عليك .

بدأت كتابك من حيث بدأت صلتك بمصحتك ، وقبيل تلك البداية كان أول عهدى بك ، إذ كنت معيداً بكلية الطب ردحاً من الزمن ، وكنتُ مستهلا دراستى الطبية فى غمار جم من الطلاب غفير . وأشهد لقد كان يروقنى أسلوب تدريسك — والرجل ، بله العلم ، هو الأسلوب — وكنت أستشف منه روح الشاعر الأديب وراء ذهن العالم الطبيب ، وتلك روح مافتئت أراها مناط التمايز فى التدريس الطبى ، وقليل من يؤتاها ، ولقد أوتيتها حديثاً وكتابةً بما تغبط عليه ، حتى لأذكر أننى ضننت فى محفوظاتى إلى أمد قريب بمجالة لك بالانجليزية عن البلهارسيا تشهد لك فى هذه اللغة — فضلا عن العربية — بجودة البيان .

ولقد شاقنى من بعد ما تأتّى لى من كتاباتك ، فلا غرو أن يشوقنى كتابك عن مصحة حلوان ، وإن فى موضوعك هذا لخافية لست أدرى ما كنهها ، ولكننى عليم أنها تشوق كل طبيب أديب . ألم تصف كيف شاقتك ، بل ألهبت خيالك فكرة إنشاء المصحة ، ولما تزل طبيباً ناشئاً مغترباً عن الأوطان ، فساقتك إليها مستدرجاً متدرجاً حتى أضحيت لها نعم المدبّر الدير ، وإذا هى تملك عليك أقطار مشاعرك فتتفانى فيها كما يتفانى الربان فى سفينته وكأنما هى دنياه ، وإذا أنت تستهل كتابك بقصيدة بلغ من براعة استهلالها أن وقفت بالدار ، وبكيتها مؤذنة باندثار ، وشبّبت فيها بعروس أفكار ، كل ذلك فى اتساق وفى آن ، وكأروع ما ينوح على منازل القلوب صب ولهان !

أى سحر هذا الذى استحوذ عليك من مصحة حلوان ؟ وأية فتنة تلك التى تتجلى فى استهواء المصحة للأطباء الأدباء — على ما هو معروف من هوايتك ، وما وصفت من هواية الدكتور « برنارد » مدير المصحة الأول . وإن شئت مزيداً فإنى لأذكر — وإن بَعُد العهد — غدوات لى إلى المصحة وروحات ، كنت أعود بها ، وأنا بعد طالب طب ، زميلا فاضلا لى كان ثمة يستشفى ، وكان هو أيضاً يهوى الأدب وما يزال ، وقد أبرأته المصحة بمنة الله ، فلم يكد يتم دراسته حتى التحق بها ضمن من تتابعوا عليها ممن سميت من أطباء . ولعلى سمعت عن أطباء غيره بمثل قصته ، وعجيب أن تترادف الأمثلة بهذه الظاهرة فى جانب الأطباء ، وأن يقابلها فى جانب المرضى ما يؤكدها بما هو متواتر مشهور : من تقزز حسهم ، وحدة خيالهم ، وسطوة مشاعرهم وغرائزهم ، حتى ليكثر بينهم الموهوبون بالفنون ، على ما ألمت إليه فى كتابك ، وما حفلت به روائع القصص وافتن فيه كتابها المبدعون .

على أننى رأيتك ، يا صديقى ، أوشكت تتنصل فى قصيدتك من هوايتك الأدب ، فتقول إنك آثرت على يراعتك مبضعك ومسماعك ، كأنما أصبح الأدب للأطباء فى هذا البلد تهمة تدفع ، وزلة يعتذر منها ، وإنه فى سائر بلاد الله لمحمدة تذاع ومفخرة يشاد بها — تنبىء عن ذلك مطابعهم — فما تكاد تخرج إلى عالم الأدب كتاباً لطبيب حتى تتلقفه الأيدى فلا يساعفها منه تلاحق الطبعات . ألا فهوّن عليك ، يا صديقى ، تحرجك من الأدب ، ولا تولع منه بفرط إشفاق : وخذ بنا فى تلك الظاهرة



على الحصـــــان

للقصصي الفرنسي جي دي مو باسان

بقلم الأستاذ كمال الحريري

كانوا فى فقر وعوز ، يزجون أيامهم تزجية على راتب الزوج الضئيل. ولقد رزقوا ولدين من زواجهم ، أما فقرهم ، فقد كان من نوع البؤس المخبوء الخجل . بؤس عائلة نبيلة ، تريد أن تتمسك بتقاليدها وتأخذ مكانها بين أندادها الأشراف مهما كلفها الأمر . لقد نشأ هكتور « دى كريبلين » فى الريف تحت كنف أب مدرس ، ولم تكن الأسرة فى رغد من العيش ، وإن كانت تحافظ على مظاهر النعمة . فحين بلغ «هكتور» العشرين من عمره ، سعت له أسرته فأدخلته موظفاً فى وزارة البحرية . براتب ١٥٠٠ فرنك . فأصطدم الفتى بتلك الصخرة التى يصطدم بها كل من لم يعد نفسه فى بكورة العمر لمعركة الحياة القاسية. فهو يرى الوجود من خلال ضباب كثيف ، ثم هو يجهل كل الجهل وسائل العيشة وأساليب الناضلة والمقاومة . لأنه لم يتزود منذ حداثته بمؤهلات كفاحية لمجابهة مرارة الحياة وشظف العيش ، إنما أتى به إلى هذا الوجود ، وليس فى يده آلة أو سلاح لمنازلة حوادثه .

لقد كانت سنوات « هكتور » الثلاث الأولى فى دائرة عمله ، مدعاة للتوبيخ . فلقد ألف من عائلته لفيفا من الأصدقاء قليلى المال مثله ، كانوا يحيون فى أوساط النبلاء ، أى فى الشوارع الحزينة من ضاحية « سانت جرمان » فربط هكتور معهم حلقة تعارف وصداقة . وباغترابهم عن الحياة العصرية كان هؤلاء الأرستقراطيون الموزون ، يقطنون فى تواضع ، الطوابق المرتفعة من المنازل والمساكن الهادئة . ومن أعلى إلى أسفل هذه المنازل كانت ألقاب المستأجرين الضخمة تتردد على كل لسان ، ولكن يظهر أن النقود ، كانت هى البضاعة المفقودة عندهم من الطابق

التى لفتتك — وما أخالك إلا كنت ملتفتاً إليها — تخص فيها بالاستقصاء والاستقراء عالماً طبيباً ، وبالمنظوم والمنثور شاعراً أديباً ، فما حشدت لتجلية هذه الظاهرة مواهب كمواهبك ، ولا ظروف كظروفك ، وإن تجليتها لفتح طبى وأدبى لا يتملق به إلا من كان فى همتك ، وفى الحق إنك لها !

ولقد اصطرعت فى قصة مصحتك من شخصيتك شعب ثلاث : نفحتك الشاعرية ، وذهنيتك العلمية ، وصفة عملك الرسمية ، وفى النطاق الذى قسرك عليه هدفك ، لقد استطعت أن تبلغ بهذه الشعب فى اصطراعها حد الإبداع ، وكأنما قدر للداء الذى أدرت حوله موضوعك أن يطل عليه أبداً — من حيث يدرى المرء أو لا يدرى — شبح المأساة . ولم تباطئ المأساة مصحتك ، إذ أوعدتها العوادى أن تجعلها جصيداً كأن لم تغن بالأمس ، وكأن لم تبرح طوال عشرين عاماً جمة المآثر ، جلية الآثار ! فوا أسفاه على بلد ترتجل سياسته فلا يقر لها قرار ، ولا ترعى فيه حرمة دار حياها الله من دار ! هذا ومن ورائنا أوائل شيدوا ، وأمامنا أقوام بنوا ، فإذا دورهم العامة معالم مكتملة المقومات ، بل شخصيات معنويات ، تذكر بذكريات ، وتمجد بأمجاد ، وتعيد لها الأعياد ، ويطاول بها الدهر خوالد باقيات

ترى لو صح أن الأرواح تحوم هائمات ، والأصوات تختزن مكنونات ، حينما تجرى تصاريف الأقدار ، ويطاح بالآجال والآمال ، ولو أتيح بما أجن فى ضمير الغيب من أفانين المخترعات ، أن تتبدى تلك الأرواح مرئية ، وتنطق هذه الأصوات العيية ، فأى روع وهول كان عساه يتفجر من أرجاء المصحة حمماً ودوياً ، إزاء أمانة أشفقت من حملها الرواسى ولم ترع إنسياً ! لكأنى إخال ما أتخيل ، وأتسمع بين تلك الأصوات المدوية صديق دراستى ، ذلك الطبيب النافع الذى يفيء الآن على مرضاه مما أفاء الله عليه من العافية بالصحة ، وهو يجأر مستصرخاً : لا تنخبوا الدور على منخوبى الصدور ، وقد وسع الله عليكم رحاب الأرض وجنبات القصور .

وبعد ، أى صديقى عبد الرؤوف ! لئن ضاق صدرك ، فقد انطلق لسانك ، وبلاغاً أبلغت ، وربك أشهدت ، ولله الحكم ، وإليه ترجع الأمور !

دكتور لويس دوس

الأول حتى الطابق السادس .

أما أعذارهم لهذا السكن المتطرف ، فهي خطورة مراكزهم وتقدم حقوق عائلتهم على بقية الناس ، واهتمامهم بعدم التسفل أمام العامة . وقد كانوا ما كانوا في سمو المنزلة وعراقة الأصل .

لقي هكتور « دي كربيلين » في هذا الوسط فتاة نبيلة فقيرة مثله ، فعقد قرانه عليها ، وفي خلال أربعة أعوام كان لهما ولدان . مرت أربع سنين أخر ، لم يعرف خلالها « هكتور » السكين من ملاهي الشباب ومتع الحياة غير التنزه في حدائق الشانزليزه أيام الآحاد ، أو حضور ملاعب التمثيل مرتين أو ثلاثا طيلة الشتاء، وذلك بفضل تذاكر كان يجود بها عليه بعض زملائه وأصحابه .

ولكن ها هو ذا الربيع يقبل فإذا مهمة يكافئه الرئيس بها ، يتسلم بعد انجازها من الرئيس منحة فوق العادة مقدارها ثلاثمائة فرنك .

ولما حمل هكتور هذا المبلغ إلى امرأته قال : عزيزتي «هنريت» ينبغي أن نبهج أنفسنا بمسرة أو متعة تدخل على طفلينا السرور والبهجة وبعد جدال طويل قر الرأي على أن يصحب هكتور زوجه وابنيه إلى نزهة خلوية : وهتف هكتور : لعمري إن السير على الأقدام أمر مبتذل لا يليق؛ لهذا سوف نستأجر عربة نزهة لك وللطفلين وللوصيفة . أما أنا فسأحصل على جواد في بداءة رويضه . فإن ركوبه يثير في نفسي نوعاً من الفرح واللذة . . وفي خلال أسبوع لم يكن حديث العائلة ليتناول أمراً غير النزهة المقبلة ومشروع امتطاء الحصان .

وعند المساء ، حين آب هكتور من عمله ، كان يتناول طفله البكر فيتخذ له من ركبتيه ممتطى كصهوة الجواد ، ثم يقول له وهو يحركه ويقفزه .

— هكذا سيعدو ويركض بحصانه أبوك في الأحد المقبل وقت نزهتنا يابني . فكان الطفل طول النهار يهمز الكراسي ويشد عليها بساقيه ، ثم يجرها حول الغرف قائلا :

— هو ذا أبي في حالة الركوب . حتى لقد كانت الوصيفة ذاتها ترمق سيدها بعين الدهشة والإكبار حين تتخيله راكباً ظهر حصانه وسائراً بحذاء العربة . وفي أثناء وجبات الطعام كانت تصغي إليه وهو يتحدث عن فروسيته ومفاخره السابقة في ترويض الجياد . فهو ماهر في الركوب من الدرجة الأولى . ويكفي أن يكون الحصان العتيد الشموس بين ساقيه وتحته . إنه وقتذاك لن يخاف شماسه أو حرنه . ولقد كان يكرر لامرأته وهو يفرك كفيه ابتهاجاً :

آه لو أنهم آجروني يوم الأحد المقبل حصاناً شكساً غير مروّض! إني سأكون إذن جدّ مبتهج وستبصرين كيف أمتطيه وأعلوه . وإذا أحببت يا عزيزتي ، فلتكن عودتنا من نزهتنا عن طريق « الشانزليزه » حين إياب المتنزهين من الغابة . وبما أن منظري على ظهر الجواد لن يكون مخجلاً فلا بأس أن نلتقي بأحد موظفي البحرية ، خصوصاً وأن التباهي بين الرؤساء شيء مستحب يدعو إلى الإحترام .

وفي اليوم الموعود ، وصلت العربة والجواد في وقت واحد إلى منزل هكتور ، فنزل فجأة ليفحص الحصان ، ثم خاط لبنطلونه سيوراً لركوبه ، وأصلح سوطاً للضرب اشتراه البارحة ، ورفع بالتعاقب قوائم الحصان وراح يجس عنقه وخاصرتيه وثنيات قوائمه ثم حسس بأصبعه كليتيه وفتح فمه ، ونقب عن أسنانه فاحصاً عمره . وحيث أن العائلة ، كانت تستعد للنزول ، فقد خطر له أن ينطلق به حول المنزل ، ويطبق في ركوب هذا الجواد الكريم ، ما عنده من نظريات في فن الركوب . ولما أخذوا جميعاً أمكنتهم من العربة ، راح يتأكد من متانة سيور السرج ، ثم قفز إلى ظهر الجواد فسقط على ظهره سقوطاً أرقص الحصان فأخذ يثب تحت هذا الحمل ، وقد قام في نفسه أن يربك راكبه . وتأثر هكتور من هذه الوثبات ، فاجتهد أن يهدّئ من حدته . فقال له : هيّا . ولكن برفق يا صديقي وعلى مهل . ولما ثابت للحصان سكينته هتف صائحاً :

— هل أنتم مستعدون ؟! فانطلقت الأصوات تقول نعم .

وحينئذ قال آمراً هيا إلى الطريق . . . ثم ابتعدت القافلة الصغيرة شيئاً فشيئاً . ولكن الحصان أخذ يعلو بصاحبه ويتهادى كأنما هو في حفلة رقص ، حتى لقد خيل لهكتور أنه موشك على السقوط عن ظهره . لهذا ثبت عينيه في الأرض وقد علت محياه صفرة الرعب . وكانت امرأته وهي تحمل أحد الطفلين إلى صدرها ، والمربية وهي ترفع الثاني لا تفتران عن الهتاف في أذن الطفلين : ألا تنظران أباكما ؟ ! وسكر الطفلان بنشوة النزهة وهزة الفرح واعتلال الهواء فكانا يصرخان ويزيطان زياطاً أجفل الجواد المسكين ، فجرى يركض ويعدو . وبينما كان فارسه

يجهد فى كبح جماحه تدحرجت قبعته على الأرض . فتحتم على سائق المركبة أن ينزل من مقعده لالتقاطها ومناولتها لصاحبها وبحصول هكتور عليها بدأ يوجه عن بعد إلى امرأته :

— ألا تريدين إسكات الطفلين عن الصراخ والضجيج ؟! إن صياحهما يغيظنى ... ونزلت القافلة فتناولت طعام الإفطار فوق العشب الخضل تحت ظل غابة من صندوق ملىء مؤونة وطعاماً ، وبالرغم من أن سائق العربة لم يقصر فى الإعتناء بالجياد ، كان هكتور بين حين وآخر ينهض ليرى ما إذا كان جواده لا ينقصه حاجة . وحينئذ يأخذ فى مداعبته فى عنقه ثم يناوله بيده الخبز الأبيض وفطائر « الـكاتو » اللذيذة وقطع السكر الفاخرة . وكان لا يفتأ يعلن أن جواده مسباق .. نعم إنه هزنى وزلزلنى من على صهوته أول الأمر ، ولـكنك أبصرت يا « هنريت » كيف استمسكت عليه ، والآن وقد عرفنى فلن يبدى أى حركة مطلقاً . ورجعت العائلة من طريق « الشانليزه » كما كان مقرراً . كانت الجادة حافلة بالعربات والمركبات وعلى جانبى الطريق ازدحمت الأرصفة بجموع المتنزهين ، وكان سيلاً دافقاً من أشعة الشمس يسقط على هذه الخلائق ، فيؤلـق دهانات العربات ويلمـع نعال الأفراس ، ويضوى مقابض ومطارق الأبواب . وكأن جنون الحركة ونشوة الحياة كانتا تحركان جماهير الناس وجماعات المتنزهين وأسراب الحيوانات . وما كاد حصان هكتور يجتاز « قوس النصر » حتى مسته حماسة جديدة . وبالرغم من كل محاولات راكبه لضبطه ورد جماحه أخذ ينطلق فى الطريق كالسهم المنقذف . كانت العربة وراءه بعيدة عنه . فلما واجه هكتور قصر « باله لاندوستري » شاهد الجواد الطريق أمامه منفسحاً كميدان السباق فانطلق يعدو كالريح ، وكانت امرأة عجوز فى ثياب الخدمة تقطع الرصيف بخطوات بطيئة ، فرأت نفسها بغتة فى طريق حصان هكتور ، وكان الجواد قد تنكب الجادة وتوسط الرصيف . ورأى هكتور نفسه عاجزاً عن كبح حرن الجواد ، فبدأ يصرخ بملء صوته ، هه ... هولا . وراءك ، ولـكن ربما كانت العجوز صماء ، لأنها واصلت سيرها هادئة حتى اللحظة التى التطمت فيها بصدر الجواد ، الذى كان مقذوفاً كمحرك القطار . فتدحرجت العجوز عشر خطوات بعد أن أكبت ثلاث مرات على رأسها وبعد أن طار عنها صدار الخدمة وتعالت أصوات من الشارع : اقبضوا عليه ، أمسكوه ! فضاع رشد هكتور ، وتمسك بظهر الجواد ، ثم انطلق يقول : النجدة ، الغوث . ولـكن صدمة عنيفة ألقت به من سرج حصانه ، فانقذف كعيار نارى من فوق رقبة الجواد . وإذا به يقع بين يدى ضابط من ضباط الجيش هجم عليه كى يمسكه ، وفى لحظة ، تحلق حوله رهط من الناقمين ، ولـكن سيداً متقدماً فى السن يزدان صدره بكثير من الأوسمة المستديرة ، ويعلو فمه شارب أبيض ضخم اغتاظ منه أكثر من الحاضرين فقال :

تباً لك ! حين يكون المرء أخرق مثلك يقتضى أن يلزم منزله فلا يخرج ليقتل الناس على قارعة الطريق بعدم استطاعته قيادة جواده . وفى هذه اللحظة ظهر أربعة رجال يحملون المرأة العجوز ، وكانت كأنها الميتة بوجهها الأصفر الـكالح وقبعتها الملوثة بغبار الطريق قال الرجل المسن :

احملوا هذه المرأة إلى صيدلية إسعاف . وهيا بنا إلى ضابط الشرطة .

ومشى هكتور فى الطريق بين حارسين من الشرطة وثالث كان يقود حصانه بينما أسراب من الناس تتبعه . وفجأة ظهرت عربة زوجه فانقذفت منها فى حين كانت الوصيفة كأنها فقدت صوابها والأطفال كانوا يجهشون بالعويل والصراخ . فشرح لهم هكتور الموقف ، وقال : إنه دهس امرأة والأمر لا يهم مطلقاً . فمضت العائلة وقد جن جنونها من الرعب والقلق ، وعند ضابط الشرطة كانت إفادة هكتور قصيرة . قال « للقومسير » اسمه « هكتور دى كريبه لين » موظف فى وزارة البحرية . ثم تهيأ القومسير لسماع تفاصيل الجريمة . وجاء شرطى نيط به الإستعلام عن حال العجوز يقول : إنها صحت من غشيتها وثابت لرشدها بيد أنها تشكو آلاماً مبرحة فى جوفها . وهى امرأة فى الخامسة والستين من سنيها . يدعونها مدام « سيمون » ولما تأكد هكتور من عدم وفاة ضحيته عاد إليه عازب الأمل . فتكفل أن يقوم بنفقات المريضة حتى يوم شفائها . ثم هرول عجلاً إلى صيدلية الإسعاف ، فأبصر جماً من الناس مرابطاً حول الباب وكانت العجوز مستريحة إلى أريكة تشكو وتتوجع ويداها جامدتان ووجهها يعلوه شحوب الموت . كان هناك طبيبان يفحصانها أيضاً ولم يكن فى جسمها عضو مكسور ، ولـكن يخاف من جرح داخلى . كلمها هكتور . هل تتألمين كثيراً ؟ — أوه نعم . وأين موضع ألمك ؟

— إنى لأشعر بمثل النار تتقد فى معدتى ، واقترب طبيب فقال :

— وإذن يا سيدى فأنت بطل الحادث ؟!

— نعم يا سيدى .

— ينبغى لك إرسال هذه المرأة إلى مصحة من مصحات المرضى ، وإنى سأدلك على واحدة تتقبلها بستة فرنكات فى اليوم . أتود أن أتولى عنك هذه الخدمة ؟ . فاستطير قلب هكتور وشكر الطبيب ، ثم انقلب إلى بيته مستريحاً ناعم البال ، وكانت زوجته تنتظره بين الآهات والعبرات ، فهدأها قائلاً :

لا بأس علينا من هذه المرأة الجريح إن صحتها فى تحسن . وبعد ثلاثة أيام لن يبقى فى جسمها موضع شكوى أو ألم . لقد بعثت بها إلى مصحة فلا تقلق من أجلها . وفى الغد ، فور خروجه من دائرة عمله انطلق يستعلم أخبار مدام سيمون فألفاها تتهيأ لاحتساء مرق من الحساء ، كثيرة الدهن . وهى جذلة راضية قريرة العين . فقال لها: إه ! أراك بصحة جيدة؟ فأجابت:

— أوه يا سيدى المسكين ، إن حالى هى حالى لم تتغير ، وإنى لأشعر بأنى صائرة إلى العدم ما دامت صحتى تتدهور . أما الطبيب فقد أعلن أنه من الواجب الانتظار فقد يعرض للمريضة حال من اشتباك العلة لا يعلمها الطبيب . وانتظر الفتى ثلاثة أيام ثم عاد بعدها ، فاذا المرأة العجوز بصفرة وجهها الضيئة وعينها الزائغة تأخذ فى ترداد ألمها حين مشاهدته .

— إنى لا أستطيع حتى التحرك يا سيدى المسكين ، لا أقدر على ذلك حتى نهايتى الأخيرة . فمرت عظام هكتور رعشة ، ومضى يستفهم الطبيب ورفع الطبيب يديه قائلاً :

— ماذا تريد منى يا سيدى ؟ أنا نفسى لا أعلم عن حالها شيئاً . إنها تصرخ وتعوى حين يراد إجلاسها وإنهاضها ، حتى إنه لا يمكننا تحريك مقعدها دون أن نمرض آذاننا لصرخاتها الداويات المزعجات ، وإذن فأنا على تصديق ما تدعيه . لأنى لست بداخلها ولا فى جوفها . وما دمت عاجزاً عن أن أجعلها تمشى وتسعى فليس من حقى أن أفترض أى وهم من ناحية مرضها . وكانت العجوز تسمع كلامه هادئة لا تتحرك ، وفى عينيها الخبث والمكر .

ومرت ثمانية أيام ، فخمسة عشر ... فشهر ، ولم يبارح مدام سيمون مقعدها المريح ، لقد كانت تأكل من الصباح إلى المساء ، وكانت تكتظ شحماً ولحماً . ثم إنها كانت تتحدث بسرور إلى بقية المرضى فى المصحة ، وكأنها بتعودها على عدم الحركة والنهوض كانت تكتسب فرصة للاستجمام من عناء خمسة وستين عاماً للخدمة ، قضتها فى صعود ونزول الأدراج ، وتهيئة الأفرشة والأسرة ، وفى حمل قطع الفحم من طابق إلى طابق ، وفى كنس الغرف وتنظيف الثياب .

وضاع رشاد هكتور ، فكان يعودها كل يوم ، وفى كل يوم كان يراها هادئة تعلن إليه :

— أواه إنى لا أستطيع الانتقال أو الحركة يا سيدى المسكين! لا أستطيع ، لا أستطيع . وعند كل مساء كانت مدام دى كريبه لبن تسأل زوجها وهى فريسة القلق . ومدام سيمون ؟ فيجيبها فى خمود يائس :

— لا جديد عنها . فهى لم تتغير أبداً . وسرحت العائلة الوصيفة من الخدمة لأن راتبها أصبح عبئاً باهظاً عليها . ثم أخذت عائلة هكتور تمعن فى الاقتصاد ، لأن المنحة التى أخذها الزوج من رئيسه نفدت تماماً . وفى ذات يوم جمع هكتور أربعة أطباء التفوا حول سرير المريضة ، فتركتهم العليلة يجسونها ويفحصونها ، ولكن عينيها الماكرتين ما كانتا لتحولان عنهم ، قال واحد منهم :

— يجب إجبارها على المشى ، فصرخت قائلة :

— لا أستطيع يا سادتى الكرماء لا أستطيع ، ولكنهم قبضوا عليها وأجلسوها عنوة ، ثم جروا بها عدة خطوات ، ولكنها تملصت من أذرعتهم وتدحرجت على البلاط ، وهى تصرخ صرخات كانت من الشدة والإزعاج بحيث اضطروا إلى إعادتها ثانية لمقعدها فى احتراس شديد ، وتشاور الأطباء فيما بينهم ، فاستقر رأيهم على استحالة محاولتهم تحريكها ...

ولما حمل هكتور هذا النبأ إلى زوجته تركت جسمها ينحط على مقعد وهى تجمجم ، وإذاً فمن الخير أن نجلبها إلى منزلنا فان ذلك يقلل من نفقتها ، شيئاً . وقفز هكتور .

— هنا عندنا فى دارنا ؟ أتفكرين فى هذا ؟ ! ولكنها أجابت وقد وطنت نفسها على المكروه ، وفاضت من عينيها الدموع :

— وماذا تريد أن نفعل غير هذا يا صديقى ؟ إن الغلطة لم تكن غلطتى .

(حلب) كمال الحريرى